رياضة النفس

تأليف

الإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر
الشهير بالحكيم الترمذي
المتوفى نحو سنة ٣١٩هـ

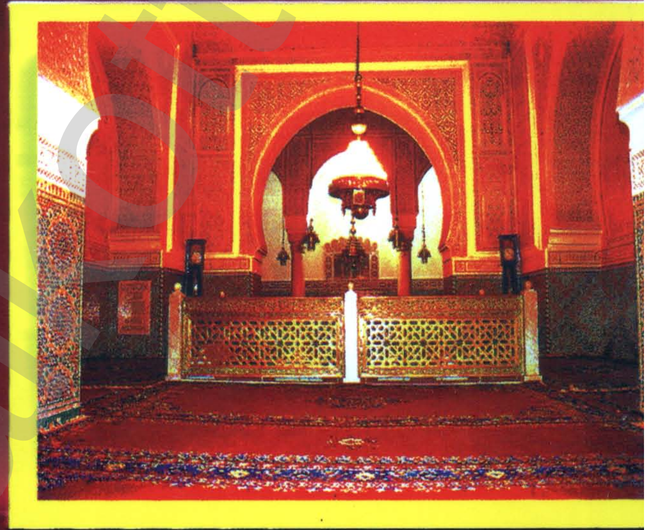
قدم له وعلق عليه
إبراهيم شمس الدين

ويليه

نحو القلوب

تأليف

الأستاذ أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري
المتوفى سنة ٤٦٥هـ



منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رياضة النفس

تأليف

الإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر
الشهير بالحكيم الترمذي
المتوفى نحو سنة ٣١٩هـ

قدم له وعلق عليه

إبراهيم شمس الدين

ويليه

نحو القلوب

تأليف

الأستاذ أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري
المتوفى سنة ٤٦٥هـ

وضع حواشيه

مرسي محمد علي

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية بيروت لبنان

الطبعة الثانية
٢٠٠٥ م. ١٤٢٦ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
هاتف: ١٢ / ١١ / ٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+ ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+ رياض الصلح - بيروت ١١٠٧ ٢٢٩٠

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun-ilmiyah.com

ISBN 2-7451-3556-2



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الكرام المنتجبين.

وبعد

فإن علم السلوك[1]، وهو معرفة النفس ما لها وما عليها من الوجدانيات، ويسمّى بعلم الأخلاق، وبعلم التصوف أيضاً.

وفي مجمع السلوك: وأشرف العلوم علم الحقائق والمنازل والأحوال، وعلم المعاملة والإخلاص في الطاعات والتوجه إلى الله تعالى من جميع الجهات، ويسمّى هذا العلم بعلم السلوك، فمَن غلط في علم الحقائق والمنازل والأحوال المسمّى بعلم التصوف، فلا يُسأل عن غلطه إلا عالماً منهم كامل العرفان.

وعلم الحقائق ثمرة العلوم كلها وغايتها، فإذا انتهى السالك إلى علم الحقائق وقع في بحر لا ساحل له، وهو، أي علم الحقائق، علم القلوب وعلم المعارف، وعلم الأسرار، ويقال له: علم الإشارة.

ويقول كبار مشايخ أهل الباطن: إنه يجب بعد تحصيل علم المعرفة والتوحيد والفقه والشرائع أن يتعلم السالك علم آفات النفس ومعرفتها، وعلم الرياضة، ومكايد الشيطان للنفس وسبل الاحتراز منه، ويقال لهذا العلم: علم الحكمة، ذلك أن نفس السالك متى استقامت على الواجبات، وصلُح طبع السالك، وتأدّب بآداب الله، أمكنه حينئذٍ أن يراقب خواطره وأن يطهّر سريرته، وهذا العلم يقال له: علم المعرفة.

(١) انظر كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي ١/ ٤٢ ـ ٤٣.

وأما مراقبة الخواطر فهي أن يتفكّر في الحق ولا يمكنه أن يشغل كل خواطره بذات الحق، بل بالأعراض، أي فيما سوى الله تعالى.

وأما تطهير السرائر، فهو أن يتطهر من كل ما يلوّثه، حتى إذا وصل إلى علم المعرفة أصبح بمقدوره أن يصل إلى علم المكاشفة والمشاهدة، وهذا ما يطلق عليه الإشارة.

وموضوع علم السلوك أخلاق النفس إذ يُبحث فيه عن عوارضها الذاتية، مثلاً حب الدنيا في قولهم: حب الدنيا رأس كل خطيئة. خلق من أخلاق النفس حكم عليه بكونه رأس الخطايا ورأس الأخلاق الرذيلة التي تتضرر بسببها النفس، وكذا الحال في قولهم: بغض الدنيا رأس الحسنات.

وغرض علم السلوك التقرب والوصول إلى الله تعالى.

هذا كتاب «رياضة النفس» للإمام الحافظ المحدث الحكيم الترمذي، وهو كتاب يتحدث فيه الحكيم عن كيفية رياضة النفس وروضها، إلى طاعة الله تعالى، وعن الأكياس من الناس، وكيف أن الأنوار تشرق على قلوبهم، وتنقاد نفوسهم.

ثم يتحدث عن الفرح المحمود للمسلم، وأقسامه من فرح بالله عزّ وجل، وفرح بفضل الله ورحمته، وفرح بلقاء الله تعالى.

ويوازن الحكيم بين نور المعرفة ونور العقل، وأن أهل المجاهدة فرقتان: فرقة حفظت الجوارح وأدت الفرائض، وسارت إلى الله عزّ وجل قلباً فلم تعرج على شيء حتى وصلت إلى الله عزّ وجل. وفرقة ثانية حفظت الجوارح، وأدت الفرائض بجهد وتعب، ومع ذلك يوجد تخليط وتهافت في الخطايا، وأدناس لا يسلم منها.

ويرشدنا الحكيم بعد ذلك إلى كيفية الحفاظ على الجوارح، وكيف أن الجوارح أسلمت آدم إلى معصية الله تعالى، وكيف يستطيع المسلم ترويض جوارحه ونفسه إلى طاعة الله عزّ وجل.

ثم يميز الحكيم بين الوسيلة والوصيلة، وعلاقة ذلك بالتقوى، وكيف أن جهاد الصديقين يكون بابتغاء وسيلة الهم والحزن، وكلما ازداد قربهم اشتد شوقهم فازدادوا حتى عطشت قلوبهم. وامتلأت أحزاناً، حتى قطعوا الحياة والعمر بالأحزان.

ويتحدث الحكيم بعد ذلك عن صراع الشيطان مع الإنسان، ووسائل الغواية لديه، وكيف أن جنود الله من الملائكة يردون كيده، ويعصمون الصالحين من العباد، ويذكر صفات الملائكة وأدوارهم ومهامهم وأصنافهم وعبادتهم.

ويختم الحكيم ببيان كيفية تأديب المسلم نفسه، وأخذها إلى تقوى الظاهر والباطن، وكيف يستعين على ذلك برؤية الموتى والمقابر وأهل السجون حتى يرث الهم والحزن.

أما عملنا في هذا الكتاب فهو:

أولاً: حرصنا بقدر الطاقة على تنقية النص من الأخطاء، حيث وجدنا الكثير من الكلمات والألفاظ غير الواضحة أو المطموسة، والتي لم يكن من السهل توضيحها وفهمها.

ثانياً: شرحنا في حواشي الكتاب ما في متنه من غريب اللغة أو صعب المتناول منها، وذلك استناداً إلى المعاجم اللغوية المشهورة.

ثالثاً: وضعنا في حواشي الكتاب تعريفاً وافياً ـ مع ذكر المراجع ـ بالأعلام الواردة في المتن، وما أهملناه من ذلك إما معروف مشهور، ولم نجد ضرورة لنافل القول فيه، وإما لم نهتدِ إليه فيما بين أيدينا من المراجع والمصادر، وقد أشرنا إلى ذلك أيضاً.

رابعاً: بذلنا ما أمكننا من الجهد في شرح المصطلحات الصوفية، استناداً إلى موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي.

خامساً: خرّجنا جميع الأحاديث النبوية والآثار تخريجاً وافياً، وضبطنا نص الحديث استناداً إلى كتب الحديث المعتبرة.

سادساً: خرّجنا جميع الآيات القرآنية الكريمة على المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

سابعاً: وضعنا مقدمة في علم التصوف، أخذناها من مقدمة ابن خلدون ١/ ٥١٤ ـ ٥٢٦.

ثامناً: وضعنا ترجمة وافية للمؤلف.

وأخيراً نرجو أن يكون عملنا هذا خالصاً لوجهه تعالى، ولله الكمال وحده، وهو ولي التوفيق.

إبراهيم شمس الدين

الحكيم الترمذي
حياته وعصره ومؤلفاته

اسمه ونسبه:

هو أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر الترمذي؛ المشهور بالحكيم الترمذي[1]. أحد أعلام الصوفية الكبار والمشهورين من قادة الفكر الإسلامي في القرن الثالث الهجري.

مولده:

ولد الحكيم الترمذي بمدينة ترمذ والتي تقع على الضفة الشمالية لنهر الجيحون بالقرب من مصب نهر سرحان.

وتعتبر ترمذ أحد مراكز الثقافة الإسلامية في القرن الثالث الهجري، فقد نشأ بها عدد كبير من العلماء والمحدثين، نذكر منهم الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي صاحب «السنن» و«الشمائل».

وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ ميلاد الحكيم الترمذي على وجه التحديد، ولكن اتفقت جميع الروايات على أنه كان موجوداً في أوائل القرن الثالث الهجري، وعلى وجه التحديد ما بين سنة ٢٠٥هـ إلى ٢٢٠هـ[2].

نشأته وثقافته:

لم تكن طفولة الحكيم الترمذي طفولة عادية مليئة بلهو الأطفال وعبثهم ولعبهم،

---

(١) انظر: تذكرة الحفاظ ٢/٦٤٥، طبقات الشافعية ٢/١٤٥ للسبكي. وهدية العارفين ٢/١٥ - ١٦. ولسان الميزان ٥/٣٠٨.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر: تذكرة الحفاظ ٢/٦٤٥ الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية، للدكتور بركة ١/٣٣. لسان الميزان ٥/٣١٠. طبقات الشافعية ٢/٢٤.

إذ لا يتصور أن يتعود ذلك ثم يفطم عنه دفعة واحدة، دون أن يحدث ردّ فعل عنيف قد يتسبب في نفوره من شيخه ودرسه، وهذا خلاف ما حدث، مما يدل على أن هذه الطفولة كان فيها نوع من التهيئة النفسية والذهنية لفترة الدرس الجاد فيما بعدها[١].

فقد فتح الحكيم الترمذي عينيه على حلقات العلم والدرس منذ بدأ يعقل، لأن أباه كان أحد علماء الفقه ورواة الحديث كما يبدو من حديثه عنه، وقد أخذ أبوه يغرس فيه حب العلم وتحصيل المعارف، ويحمله على ذلك حملاً في وقت مبكر، حتى امتلأ وقته منذ الصبا الباكر بالإقبال على الدرس وتحصيل العلم، بفضل تشجيع والده وحثه على الاستزادة منه، مدفوعاً بحرص الأب ومسؤولية المربي حتى أصبح العكوف على الدرس أمراً مألوفاً له في سنه الباكر الذي يقطعه أترابه في اللهو واللعب، وقد كان أبوه أستاذه الأول، ولعله استغنى بذلك عن التردد على الشيوخ في صباه الأول.

ويفهم مما كتبه الحكيم عن تعليمه في هذه السن المبكرة أن أباه كان يدرس له علم الرأي والآثار، أو بعبارة أخرى علم الحديث والفقه[٢]. فقد كان أبوه محدثاً ويروي عنه في كتبه جميعها، وهذا كله يجمله الحكيم الترمذي في عبارة موجزة بقوله: «كان بدو شأني أن الله تبارك اسمه قيَّض لي شيخي ـ رحمة الله عليه ـ من لدن بلغت من السمن ثمانياً، يحملني على تعلم العلم، ويعلمني ويحدثني عليه، ويدئب ذلك في المنشط والمكره، حتى صار ذلك لي عادة وعوضاً عن اللعب في وقت صباي، فجمع لي في حداثتي علم الآثار وعلم الرأي»[٣].

شيوخه وأساتذته:

لم يحدثنا الحكيم الترمذي عن شيوخ له تعلّم منهم وأخذ عليهم إلا والده الذي أشار إليه في رسالته «بدو شأن الحكيم الترمذي»، وفي جانب آخر من هذه الرسالة روى الحكيم أنه سافر إلى الحج لما بلغت سنه سبعة وعشرين عاماً، وأنه في طريقه إلى الحج ذهب إلى العراق وأقام بالبصرة والكوفة يأخذ الحديث عن شيوخهما، ولكنه لم يذكر لنا أسماء هؤلاء الشيوخ ولا مدى تأثره بهم، وقد ذكرت كتب التراجم وخاصة كتب الرجال أسماء حوالي سبعة عشر من شيوخه الذين تلقى عنهم الحديث

---

(١) الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية ١/ ٤٤.

(٢) الحكيم الترمذي ـ دراسة لآثاره ولأفكاره، الدكتور محمد إبراهيم الجيوشي ص١٥. ط. دار النهضة العربية.

(٣) المرجع السابق، ص١٥، ١٦.

في خراسان والعراق، وليسوا هم كل شيوخه من المحدثين، فإنهم يزيدون على المائة والستين محدثاً[١].

ولو أردنا أن نحصر أسماء شيوخ الترمذي وخاصة من المحدثين، فما علينا إلا أن نقوم بعملية مسح لمؤلفاته ونستعرض سلاسل الإسناد، ونأخذ المحدث الأخير الذي تلقى عنه الحكيم مباشرة[٢].

وقد قام الأستاذ الدكتور الجيوشي بهذا العمل الشاق فكانت نتيجة هذا المجهود قائمة من أسماء شيوخ الحكيم الترمذي مرتبة على حروف الهجاء كما يلي:

١ ـ إبراهيم بن سعيد الجوهري. ٢ ـ إبراهيم بن عبد الحميد التمار. ٣ ـ إبراهيم بن عبد الله الخلال. ٤ ـ إبراهيم بن المستمر المصري الهذلي. ٥ ـ إبراهيم بن هارون البلخي. ٦ ـ إبراهيم بن يوسف الحضرمي الكوفي الصيرفي. ٧ ـ ابن أخي يحيى بن عيسى الرملي. ٨ ـ أبو بكر بن سابق الأموي. ٩ ـ أبو بكر أحمد بن مطرف. ١٠ ـ أبو سنان البلخي. ١١ ـ أبو طالب الهروي. ١٢ ـ أبو علي الصاغاني. ١٣ ـ ابن أبي بكر العمري. ١٤ ـ ابن أبي ميسرة. ١٥ ـ أحمد بن بحر العسكري. ١٦ ـ أحمد بن عبد الله أبو عبيدة بن أبي السفر الكوفي. ١٧ ـ أحمد بن عبد الله المهلبي. ١٨ ـ أحمد بن شداد. ١٩ ـ أحمد بن مرة. ٢٠ ـ أحمد بن مدرك القروي، صاحب مظالم العباس بن هاشم. ٢١ ـ أحمد بن مطرف اليماني. ٢٢ ـ أحمد بن المقدم أبو الأشعث العجلي. ٢٣ ـ أحمد بن يحيى الأزدي. ٢٤ ـ إسحاق بن زياد الأسلمي. ٢٥ ـ إسماعيل بن صالح. ٢٦ ـ إسماعيل بن نصر. ٢٧ ـ بشر بن آدم بن زيد البصري الأصغر، أبو عبد الرحمٰن ابن بنت أزهر السمان. ٢٨ ـ بشر بن خالد العسكري، أبو محمد الغرائضي. ٢٩ ـ بشر بن هلال الصواف، أبو محمد النميري. ٣٠ ـ الجارود بن معاذ السلمي الترمذي. ٣١ ـ جعفر بن عمرو. ٣٢ ـ الحارث بن عمير، أبو عمير البصري. ٣٣ ـ حجاج بن محمد الأعور. ٣٤ ـ الحسن بن الحسن المروزي. ٣٥ ـ الحسن بن سوار البغوي. ٣٦ ـ الحسن بن عمرو بن شقيق البصري. ٣٧ ـ الحسين بن حيان العسقلاني. ٣٨ ـ الحسين بن علي بن الأسود العجلي. ٣٩ ـ حصين بن فضالة. ٤٠ ـ حفص بن عمرو بن ربالة بن إبراهيم بن عجلان. ٤١ ـ حميد بن الربيع اللخمي.

(١) الحكيم الترمذي، دراسة لآثاره وأفكاره، للدكتور الجيوشي، ص٣٧.

(٢) المصدر السابق، ص٣٩.

٤٢ ـ حميد بن علي الخلال. ٤٣ ـ الخصيب بن مسلم. ٤٤ ـ داود بن حماد. ٤٥ ـ رزق الله بن موسى. ٤٦ ـ الزبير بن بكار الزبيري. ٤٧ ـ الزبير بن يحيى بن حسان الحساني اليشكري أبو الخطاب السدوسي. ٤٨ ـ سعيد بن عبد الرحمٰن المخزومي. ٤٩ ـ سعيد مولى الجارود. ٥٠ ـ سعيد بن يحيى الأموي. ٥١ ـ سفيان بن وكيع. ٥٢ ـ مسلم بن جنادة الكوفي. ٥٣ ـ سلمة بن شبيب النيسابوري. ٥٤ ـ سليمان بن حميد أبو الربيع الأيادي. ٥٥ ـ سليمان بن منصور البلخي، أبو هلال الذهبي. ٥٦ ـ سهل بن مسلم. ٥٧ ـ صالح بن عبد الله الترمذي. ٥٨ ـ سهل بن العباس. ٥٩ ـ عباد بن بكر بن عباد بن كثير الثقفي. ٦٠ ـ عباد بن عثمان بن عباد بن قاسم. ٦١ ـ عباد بن يعقوب الأسدي الرواجيني. ٦٢ ـ العباس بن أيوب الزبيري. ٦٣ ـ العباس بن زرارة اليشكري. ٦٤ ـ العباس بن عبد العظيم العنبري. ٦٥ ـ عبد الجبار بن حبيب بن ندبة. ٦٦ ـ عبد الجبار بن العلاء. ٦٧ ـ عبد الرحمٰن بن الفضل بن الموفق الكوفي. ٦٨ ـ عبد الرحمٰن بن هانىء الكوفي النخعي. ٦٩ ـ عبد الرحمٰن بن يونس بن محمد الرقى. ٧٠ ـ عبد الرحيم بن حبيب بن ندبة. ٧١ ـ عبد الرحيم أبو عمرو الغيذي. ٧٢ ـ عبد الصمد بن الفضل. ٧٣ ـ عبد العزيز بن مسلم القسملي. ٧٤ ـ عبد العزيز بن المنيب المروزي. ٧٥ ـ عبد الكريم بن عبد الله السكري. ٧٦ ـ عبد الكريم بن عبد الله. ٧٧ ـ عبد الله بن خلف بن موسى. ٧٨ ـ عبد الله بن عاصم الحماني، أبو سعيد البصري. ٧٩ ـ عبد الله بن حصين الكندي أبو سعيد الأشج الكوفي. ٨٠ ـ عبد الله بن الحكم بن زيادة القطواني. ٨١ ـ عبد الله بن عبد الله بن أسيد الكلابي. ٨٢ ـ عبد الله بن الوضاح اللؤلؤي. ٨٣ ـ عبد الله بن يوسف الخيبري. ٨٤ ـ عبد الملك بن عبد الله الرقاشي، أبو قلابة. ٨٥ ـ عبد الله الربعي. ٨٦ ـ عبد الوهاب بن عبد الحليم البزار. ٨٧ ـ عبد الوهاب بن عبد الكريم الوراق. ٨٨ ـ عبد الوهاب بن فليح المكي. ٨٩ ـ عقبة بن عبد الله المروزي الأزدي. ٩٠ ـ عتبة بن محمد الخشني. ٩١ ـ عقبة بن قبيصة. ٩٢ ـ العلاء بن سلمة الرؤاسي. ٩٣ ـ علقمة بن عمرو بن الحصين التميمي. ٩٤ ـ علي بن حجر بن أوس السعدي المروزي. ٩٥ ـ علي بن الحسن الترمذي. ٩٦ ـ علي بن الحسن النيسابوري. ٩٧ ـ علي بن خشرم المروزي. ٩٨ ـ علي بن سعيد السروقي الكندي. ٩٩ ـ علي بن سهل المزلي. ١٠٠ ـ علي بن عبد العزيز البغدادي. ١٠١ ـ علي بن عيسى بن يزيد

البغدادي. ١٠٢ ـ عمرو القناد. ١٠٣ ـ عمرو بن صالح اللؤلؤي. ١٠٤ ـ عمرو بن علي الصادقي. ١٠٥ ـ عمرو بن علي بن بحر بن كثير أبو حفص الصيرفي البصري. ١٠٦ ـ عمر بن أبي عمر العبدي. ١٠٧ ـ عمر بن يحيى بن نافع الأبلي. ١٠٨ ـ عيسى بن أحمد العسقلاني. ١٠٩ ـ فضالة بن الفضل الكوفي. ١١٠ ـ الفضل بن محمد الواسطي. ١١١ ـ الفضل بن محمد الوزير الدمشقي. ١١٢ ـ قتيبة بن سعيد. ١١٣ ـ المؤمل بن هشام اليشكري البصري. ١١٤ ـ محمد ابن أبان البلخي. ١١٥ ـ محمد بن أبي سطيع. ١١٦ ـ محمد بن إسماعيل بن سمرة الأحمي. ١١٧ ـ محمد بن أيوب السختياني. ١١٨ ـ أبو الحسن محمد بن بحر. ١١٩ ـ محمد بن بشار العبدي. ١٢٠ ـ محمد بن حميد السرازي. ١٢١ ـ محمد بن خنيس بن المخزومي المكي. ١٢٢ ـ محمد بن رزام بن عبد الملك الأبلي. ١٢٣ ـ محمد بن زنبور، أبو صالح المكي. ١٢٤ ـ محمد بن سعيد بن سويد الحكمي. ١٢٥ ـ محمد بن شجاع المروزي. ١٢٦ ـ محمد بن إبراهيم بن صدران. ١٢٧ ـ محمد بن الضحاك. ١٢٨ ـ محمد بن عبيد الله. ١٢٩ ـ محمد بن علي بن الحسن الشقيقي العبدي. ١٣٠ ـ محمد بن عبيد الهمزاني. ١٣١ ـ محمد بن عبيدة بن سليمان. ١٣٢ ـ محمد بن عبد الله بن يزيد المقرىء. ١٣٣ ـ محمد بن عثمان الطائفي. ١٣٤ ـ محمد بن عمر السويقي. ١٣٥ ـ محمد بن عمارة بن صبح الأسدي. ١٣٦ ـ محمد بن الفضل البخاري. ١٣٧ ـ محمد بن عيسى بن عبد الله الربعي. ١٣٨ ـ محمد بن محمد بن حسين. ١٣٩ ـ محمد بن مرزوق البصري. ١٤٠ ـ محمد بن معمر البصري. ١٤١ ـ محمد بن مقبل. ١٤٢ ـ محمد بن موسى الحرسي. ١٤٣ ـ محمد بن ميمون المكي. ١٤٤ ـ محمد بن يحيى بن أيوب بن إبراهيم القعري المروزي. ١٤٥ ـ محمد بن يحيى بن عبد العزيز المروزي. ١٤٦ ـ محمد بن يزيد النيسابوري. ١٤٧ ـ محمد بن يحيى النيسابوري أبو عبد الله الذهلي. ١٤٨ ـ أبو هشام الرفاعي محمد بن يزيد بن محمد بن رفاعة العجلي الكوفي. ١٤٩ ـ مهدي بن عمرو. ١٥٠ ـ موسى بن عبد الله السفل. ١٥١ ـ نصر بن فضالة. ١٥٢ ـ نصر بن عبد الرحمٰن الوشاء الكوفي. ١٥٣ ـ نصر بن علي بن نصر الجهضمي الأزدي الخراساني. ١٥٤ ـ نصير بن يحيى. ١٥٥ ـ هارون بن حاتم الكوفي. ١٥٦ ـ هارون بن موسى بن أبي علقمة القزويني. ١٥٧ ـ يحيى بن أحمد بن عبدة الطائي الكاتب. ١٥٨ ـ يحيى بن الأحمر المكتب. ١٥٩ ـ يحيى بن حبيب بن عربي. ١٦٠ ـ يحيى بن عبد الله الحراني. ١٦١ ـ يحيى بن المغيرة بن عبد الرحمٰن

المخزومي. ١٦٢ ـ يحيى بن موسى البلخي. ١٦٣ ـ يزيد بن عمرو بن يزيد البراني عبد الله الغنوي. ١٦٤ ـ يزيد بن معقل ولد أبي طيبة. ١٦٥ ـ يعقوب بن إبراهيم الدورقي. ١٦٦ ـ يعقوب بن شيبة بن السلط بن عصفور البصري. ١٦٧ ـ يوسف بن إسحاق. ١٦٨ ـ يوسف بن عبد الله بن نجيد.

تلاميذه:

قد يكون مثيراً للدهشة والتساؤل أن نتبين أن تلامذة الترمذي من القلة بحيث لا يتجاوز عددهم ستة، وسبب ذلك فيما يبدو أن الترمذي لم يهتم بتربية الأتباع والمريدين كما هو الحال بالنسبة لشيوخ الصوفية الكبار من قبله ومن بعده. ومرد ذلك أنه يعتقد أن الوصول إلى الله لا بد أن يرتكز على استعداد وجهد شخصي من السالك نفسه، وأن أي واسطة بينه وبين ربه قد تفسد طريقه وتسلمه إلى الحيرة والضياع(١).

ولم نعثر على أسماء لتلامذة الحكيم قد ثبت أنهم أخذوا عنه سوى الآتي أسماؤهم:

١ ـ أحمد بن محمد بن عيسى.

٢ ـ الحسن بن علي الجوزجاني.

٣ ـ منصور بن عبد الله بن خالد الهروي.

٤ ـ أبو بكر محمد بن جعفر بن الهيثم.

٥ ـ أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذي الحكيم.

٦ ـ أبو محمد يحيى بن منصور القاضي.

مؤلفاته:

أعدّ الدكتور الجيوشي قائمة بمؤلفات الحكيم الترمذي هذا بيانها:

١ ـ أبواب مختلفة مخطوط، الجمعية الآسيوية رقم ١٠٥٦.

٢ ـ إثبات العلل في الأمر والنهي، مخطوط ولي الدين رقم ٧٧٠ خراجي أوغلو رقم ٨٠٦. برلين ٣٥٠٤.

٣ ـ الاحتياطيات، مخطوط باريس رقم ٥٠١٨.

---

(١) الحكيم الترمذي ـ دراسة لآثاره وأفكاره، للدكتور الجيوشي، ص٥٣، ٥٣.

٤ ـ أدب النفس طبع في القاهرة ١٩٤٧ مع كتاب للرياضة تحقيق الدكتور علي حسن عبد القادر، والبرفيسور آربري. وتوجد منه نسخ مخطوطة في الظاهرية وباريس وأسعد أفندي.

٥ ـ الأدعية، مخطوط فارسي أيا صوفيا رقم ٨١٤ ومشكوك في نسبته إليه.

٦ ـ كتاب الإرادات مفقود وذكره في كتابه إلى محمد بن الفضل.

٧ ـ كتاب الأكياس والمغترين، مخطوط الظاهرية رقم ١٠٤ تصوف، وإسماعيل صائب رقم ١٥٧١.

٨ ـ الأمثال من الكتاب والسنة، مخطوط باريس رقم ٥٠١٨، ومكتبة أسعد أفندي رقم ١٤٧٩، والجمعية الآسيوية كلكتا رقم ١٠٥٦ بعنوان تبيان الأمثال.

٩ ـ أنواع العلوم، مخطوط ولي الدين ٧٧٠، وليبزج ١٢، وإسماعيل صائب رقم ١٥٧١، والظاهرية رقم ١٠٤ تصوف.

١٠ ـ بدء شأن أبي عبد الله (ترجمة للحكيم بقلمه) مخطوط إسماعيل صائب رقم ١٥٧١، ونشره الدكتور عثمان يحيى في مقدمة ختم الأولياء بيروت سنة ١٩٦٥م.

١١ ـ بيان آداب المريدين، مفقود لعله المسمى (مسائل أهل سرخس).

١٢ ـ بيان العلم، مخطوط إسماعيل صائب رقم ١٥٧١.

١٣ ـ بيان الفرق بين الآيات والكرامات، مخطوط إسماعيل صائب رقم ١٥٧١، كلكتا ١١١٦.

١٤ ـ بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب، طبع بالقاهرة سنة ١٩٥٨، تحقيق الدكتور نقولا هير عن مخطوطة وحيدة بدار الكتب المصرية.

١٥ ـ بيان الكسب مخطوط الظاهرية ١٠٤ تصوف.

١٦ ـ بيان المعرفة والصفاء، مفقود.

١٧ ـ تاريخ المشايخ، مفقود.

١٨ ـ تبيان الأمثال، الجمعية الآسيوية كلكتا رقم ١٠٥٦ وهو كتاب الأمثال.

١٩ ـ تحصيل نظائر القرآن مخطوط بلدية الإسكندرية رقم ١٤٥ فنون متنوعة.

٢٠ ـ تفسير، مفقود ذكره الهجويري وقال إنه لم يتمه، تفسير آية ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ مع تأويل أربعين حديثاً.

٢١ ـ التوحيد، مفقود مذكور في كشف المحجوب.

٢٢ ـ الجمل اللازم معرفتها، مخطوط باريس رقم ٥٠١٨، ومنشستر رقم ١٠٦ج.

٢٣ ـ جواب كتاب من الري، مخطوط إسماعيل صائب ١٥٧١، وليبزج ٢٠٢، والظاهرية ١٠٤ تصوف.

٢٤ ـ الحج وأسراره مخطوط باريس رقم ٥٠١٨.

٢٥ ـ الحقوق، مخطوط إسماعيل صائب ١٥٧١.

٢٦ ـ الحكمة أو الخدمة من علم الباطن مخطوط خراجي أوغلو رقم ٨٠٦.

٢٧ ـ ختم الأنبياء، مفقود ذكره صاحب كشف الظنون ص٧٠١ وقال عنه إنه مختصر ثم ذكر أوله وهو الحمد لله رب العالمين الخ.

٢٨ ـ ختم الأولياء ـ طبع في بيروت ١٩٦٥ تحقيق الدكتور عثمان إسماعيل يحيى، ويوجد منه نسختان خطيتان هما اللتان اعتمد عليهما المحقق الأولى في مكتبة الفاتح رقم ٥٣٢٢ والثانية في مكتبة ولي الدين رقم ٧٧٠.

٢٩ ـ الرد على الرافضة، مخطوط ولي الدين رقم ٧٧٠. غير كامل.

٣٠ ـ الرد على المعطلة، مخطوط بلدية الإسكندرية فنون متنوعة رقم ١٤٥.

٣١ ـ رسالة في الفتوة، مخطوطة أيا صوفيا رقم ٢٠٤٩.

٣٢ ـ الرياضة أو رياضة النفس (وهو الكتاب الذي بين أيدينا)، ويسمى حقيقة الآدمية وقد طبع محققاً، مرتين بعنوان الرياضة تحقيق دكتور علي حسن عبد القادر والبرفسور آربري في القاهرة سنة ١٩٤٧، وعنوان حقيقة الآدمية تحقيق الدكتور عبد المحسن الحسيني في مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية جـ٣ سنة ١٩٤٦ ص٥٠ ـ ١٠٨. وهناك عدد من المخطوطات لهذا الكتاب في الظاهرية وباريس وأسعد أفندي وتشستر بيتي، أما الورقات المعدودة في مخطوطات إسماعيل صائب المعنونة بكتاب الرياضة فيبدو أنها شيء آخر غير هذا.

٣٣ ـ سبب التكبير في الصلاة مخطوطة خراجي أوغلو ٨٠٦.

٣٤ ـ سيرة الأولياء، مفقود وذكره في أهل سرخس الظاهرية ص٢٥٠، وليبزج رقم ٦٩٥ب وإسماعيل صائب ورقة ١٣٠ب.

٣٥ ـ شرح سؤالات في التعبيرات الإلّهية مخطوط الزيتونة تونس رقم ١٥٨٩.

٣٦ ـ شرح الصلاة ومقاصدها مخطوط باريس رقم ٥٠١٨، وأسعد رقم ١٤٧٩، ثم طبع أخيراً في القاهرة سنة ١٩٦٥ نشر المؤتمر الإسلامي وتحقيق الأستاذ حسني زيدان وإن كان على التحقيق مآخذ كثيرة لعل المحقق يتلافاها في الطبعة الثانية.

٣٧ ـ شرح قول: ما الإيمان والإسلام والإحسان، مخطوط ليبزج رقم ٢١٢، وإسماعيل صائب ١٥٧١، وولي الدين رقم ٧٧٠، وهناك رسالة أخرى عنوانها: معنى الإيمان والإسلام والإحسان وقد اعتبرهما الدكتور يحيى رسالة واحدة وليس كذلك.

٣٨ ـ صفة القلوب مخطوط قسطموني رقم ٢٧١٣ وهو اختصار لغور الأمور.

٣٩ ـ طبقات الصوفية مفقود وذكره صاحب كشف الظنون ص١١٠٤ طبع إسطنبول ١٩٤٣.

٤٠ ـ عذاب القبر، مفقود، مذكور في كشف المحجوب الترجمة الإنجليزية ص١٥١، طبعة سنة ١٩٦٧.

٤١ ـ عرس الموحدين، مخطوط باريس رقم ٥٠١٨، أسعد رقم ١٤٧٩، إسماعيل صائب رقم ٤٨٢٤ ويسميه بعض الباحثين عرش الموحدين.

٤٢ ـ العقل والهوى، مخطوط باريس رقم ٥٠١٨، أسعد رقم ١٤٧٩ وفيه نقص.

٤٣ ـ العلل أو كيفية الصلاة والوضوء والسواك، مخطوط ولي الدين ٧٧٠ والقاهرة ١٢٥ مجاميع.

٤٤ ـ علم الأولياء، مخطوط دار الكتب المصرية مجاميع طلعت رقم ٦٩٤، والجمعية الآسيوية كلكتا رقم ١٠٥٦، وخراجي أوغلو رقم ٨٠٦.

٤٥ ـ العلوم، مفقود أشار إليه الحكيم في كتاب الأكياس والمغترين مخطوط إسماعيل صائب ورقة ٧٥ ومخطوط الظاهرية ص١٥ ولعله المسمى أنواع العلوم أو لعله المسائل العفنة.

٤٦ ـ غرس العارفين مخطوط الجمعية الآسيوية كلكتا رقم ١٠٥٦ وهو عبارة عن ورقة واحدة.

٤٧ ـ غور الأمور ويسمى الأعضاء والنفس مخطوط باريس رقم ٥٠١٨ وأسعد رقم ١٤٧٩ وأسعد رقم ١٣١٢.

٤٨ ـ الفرق بين الآيات والكرامات مخطوط إسماعيل صائب رقم ١٥٧١، كلكتا الجمعية الآسيوية رقم ١١١٦ وهي غير كاملة.

٤٩ ـ الفروق ومنع الترادف، مخطوط باريس رقم ٥٠١٨ أسعد رقم ١٤٧٩، أيا صوفيا رقم ١٩٧٥، وحيد باشا رقم ٢٢٥١ بلدية الإسكندرية فقه شافعي ٣٣ وهي غير كاملة.

٥٠ ـ الكلام على معنى لا إلّه إلا الله أو شفاء العلل مخطوط ليبزج رقم ٢١٢ وخزينة رقم ١٧٦٢، ولي الدين رقم ٧٧٠.

٥١ ـ مسائل أهل سرخس مخطوط ليبزج ٢١٢، إسماعيل صائب رقم ١٥٧١، والظاهرية رقم ١٠٤ تصوف. وانظر تعليقات آربري عليها مع مسائل التعبير في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية في العدد رقم ١٨ سنة ١٩٤٠، صفحات ٣١٥ ـ ٣٢٧.

٥٢ ـ مسائل التعبير، مخطوط إسماعيل صائب رقم ١٥٧١ ليبزج رقم ٢١٢ وانظر تعليقات آربري عليها كما هو مشار إليه في العمل السابق.

٥٣ ـ مسائل رقم واحد مخطوط ليبزج رقم ٢١٢ وإسماعيل صائب رقم ١٥٧١.

٥٤ ـ مسائل رقم ٢ مخطوط ليبزج رقم ٢١٢.

٥٥ ـ المسائل العفنة مخطوط ليبزج رقم ٢١٢، إسماعيل صائب رقم ١٥٧١، الظاهرية رقم ١٠٤.

٥٦ ـ مسألة في الإيمان والإسلام والإحسان ليبزج رقم ٢١٢، ولي الدين ٧٧٠.

٥٧ ـ المسائل المكنونة مخطوط ليبزج رقم ٢١٢، بلدية الإسكندرية فنون متنوعة ١٤٥.

٥٨ ـ معرفة الأسرار، مخطوط قسطموني رقم ٢٧١٣.

٥٩ ـ منازل العباد من العبادة أو منازل القاصدين مخطوط باريس ٥٠١٨، أسعد أفندي.

٦٠ ـ منتخبات من كتاب الصفاء، مخطوط تشستربيتي.

٦١ ـ المناجة ـ مخطوط الأزهر رقم ٢٣٦، مجاميع.

٦٢ ـ المنهج في العبادة مفقود مذكور في كشف الظنون ص١٨٧٨ طبع إسطنبول سنة ١٩٤٣.

٦٣ ـ المنهج في. . .، مفقود مذكور في كشف الظنون ص١٨٨٣ طبع إسطنبول ١٩٤٣.

٦٤ ـ المنهيات وكل ما جاء من حديث بالنهي مخطوط باريس رقم ٥٠١٨.

٦٥ ـ النهج مفقود، أشار دكتور نقولا هير إلى أنه مذكور في نفحات الأنس وكشف المحجوب.

٦٦ ـ نوادر الأصول في معرفة أخبار الرسول طبع في إسطنبول سنة ١٢٩٣هـ، بعناية وشرح الشيخ مصطفى إسماعيل الدمشقي وسمي شرح مرقاة الوصول إلى نوادر الأصول.

٦٧ ـ نوادر أصول العرفان وزواهر فروع الإيقان مخطوط فيينا رقم ٦٤٠ وهو مجموعة قصائد باللغة الفارسية ويشك في نسبته إليه.

٦٨ ـ الهداية إلى معرفة آداب الولاية مخطوط في نسبته له شك بدار الكتب القاهرة الخزانة التيمورية مجاميع رقم ٢٢٧.

تلك هي عناوين الكتب والرسائل التي ألّفها الحكيم الترمذي حسب علمي، ومما لا شك فيه أن هناك مؤلفات أخرى لم نعثر عليها بعد، وقد يكشف البحث في المستقبل عنها ولم نضف إلى هذه القائمة ما روي.

وفاته:

اختلفت المصادر في تحديد تاريخ وفاة الحكيم الترمذي، ولكن الدارس لتاريخ حياة الحكيم الترمذي يستطيع أن يذهب إلى أن وفاته كانت بعد عام ٣١٨هـ، وقد يكون ذلك في ٣١٩هـ أو ٣٢٠هـ كما ذهب بروكلمان إلى ذلك.

مقدمة
في علم التصوف(١)

هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملّة. وأصله أن طريقة هؤلاء القوم، لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومَن بعدهم، طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يُقبِلُ عليه الجمهور من لذةٍ ومالٍ وجاهٍ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختُصَّ المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوِّفة. وقال القشيري رحمه الله: ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس. والظاهر أنه لقب. ومَن قال: اشتقاقه من الصفاء، أو من الصفة، فبعيد من جهة القياس اللغوي، قال: وكذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه.

قلت: والأظهر أن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف، وهم في الغالب مختصون بلبسه، لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف. فلما اختُص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والإقبال على العبادة، اختُصوا بمآخذ مدركة لهم؛ وذلك أن الإنسان بما هو إنسان إنما يتميز عن سائر الحيوان بالإدراك، وإدراكه نوعان: إدراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم؛ وإدراك للأحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر، وأمثال ذلك. فالروح العاقل والمتصرف في البدن تنشأ من إدراكات وإرادات وأحوال، وهي التي يتميز بها الإنسان. وبعضها ينشأ من بعض، كما ينشأ العلم عن الأدلة، والفرح والحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذِّذ به، والنشاط عن

---

(١) مأخوذة من تاريخ ابن خلدون «المقدمة» طبعة دار الكتب العلمية ١/ ٥١٤ ـ ٥٢٦.

الحمام، والكسل عن الإعياء. وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته، لا بد وأن ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة. وتلك الحالة إما أن تكون نوع عبادة، فترسخ وتصير مقاماً للمريد؛ وإما أن لا تكون عبادة، وإنما تكون صفة حاصلة للنفس. من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات. ولا يزال المريد يترقى من مقام إلى مقام، إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة. قال ﷺ: «مَن مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة». فالمريد لا بدَّ له من الترقي في هذه الأطوار، وأصلها كلها الطاعة والإخلاص، ويتقدّمها الإيمان ويصاحبها، وتنشأ عنها الأحوال والصفات نتائج وثمرات. ثم تنشأ عنها أخرى وأخرى إلى مقام التوحيد والعرفان. وإذا وقع تقصير في النتيجة أو خلل فنعلم أنه إنما أتى من قبل التقصير في الذي قبله. وكذلك في الخواطر النفسانية والواردات القلبية. فلذا يحتاج المريد إلى محاسبة نفسه في سائر أعماله، وينظر في حقائقها؛ لأن حصول النتائج عن الأعمال ضروري وقصورها من الخلل فيها كذلك. والمريد يجد ذلك بذوقه ويحاسب نفسه على أسبابه. ولا يشاركهم في ذلك إلا القليل من الناس، لأن الغفلة عن هذا كأنها شاملة.

وغاية أهل العبادات، إذا لم ينتهوا إلى هذا النوع، أنهم يأتون بالطاعات مخلصة من نظر الفقه في الأجزاء والامتثال. وهؤلاء يبحثون عن نتائجها بالأذواق والمواجد، ليطَّلعوا على أنها خالصة من التقصير أولاً؛ فظهر أن أصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الأفعال والتروك، والكلام في هذه الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات؛ ثم تستقر للمريد مقاماً، ويترقى منها إلى غيرها. ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم، إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة. فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف، اصطلحنا عن التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه. فلهذا اختُص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه. وصار علم الشريعة على صنفين: صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا، وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات؛ وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها، والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقها، وكيفية الترقي منها من ذوق إلى ذوق، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك.

فلما كُتبت العلوم ودُوِّنت، وألَّف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك، كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقتهم. فمنهم مَن كتب في الورع

ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك، كما فعله المحاسبي في كتاب الرعاية له؛ ومنهم مَن كتب في آداب الطريقة وأذواق أهلها ومواجدهم في الأحوال كما فعله القشيري في كتاب الرسالة، والسهروردي في كتاب عوارف المعارف وأمثالهم. وجمع الغزالي رحمه الله بين الأمرين في كتاب الإحياء، فدوَّن فيه أحكام الورع والاقتداء، ثم بيَّن آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم. وصار علم التصوف في الملة علماً مدوَّناً، بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط وكانت أحكامها إنما تُتلقى من صدور الرجال، كما وقع في سائر العلوم التي دُوِّنت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك.

ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس، والاطلاع على عوالم من أمر الله، ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها. والروح من تلك العوالم. وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس، وقويت أحوال الروح، وغلب سلطانه وتجدَّد نشؤه، وأعان على ذلك الذِّكر؛ فإنه كالغذاء لتنمية الروح، ولا يزال في نمو وتزيُّد، إلى أن يصير شهوداً بعد أن كان علماً. ويكشف حجاب الحس، ويُتم وجود النفس الذي لها من ذاتها، وهو عين الإدراك. فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهي، وتقرب ذاته في تحقق حقيقتها في الأفق الأعلى، أفق الملائكة. وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم. وكذلك يدركون كثيراً من الواقعات قبل وقوعها ويتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية، وتصير طوع إرادتهم. فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا يتصرفون، ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يؤمروا بالتكلم فيه؛ بل يعدون ما يقع لهم من ذلك محنة، ويتعوَّذون منه إذا هاجمهم. وقد كان الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة، وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ؛ لكنهم لم يقع لهم بها عناية. وفي فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم كثير منها. وتبعهم في ذلك أهل الطريقة، ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم، ومَن تبع طريقتهم من بعدهم.

ثم إن قوماً من المتأخرين انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب والكلام في المدارك التي وراءه، واختلفت طرق الرياضة عنهم في ذلك، باختلاف تعليمهم في إماتة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكر، حتى يحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها بتمام نشوتها وتغذيتها. فإذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر في

مداركها حينئذٍ، وأنهم كشفوا ذوات الوجود وتصوروا حقائقها كلها من العرش إلى الطشِّ. هكذا قال الغزالي رحمه الله في كتاب الإحياء بعد أن ذكر صورة الرياضة.

ثم إن هذا الكشف لا يكون صحيحاً كاملاً عندهم، إلا إذا كان ناشئاً عن الاستقامة؛ لأن الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والخلوة، وإن لم يكن هناك استقامة كالسحرة وغيرهم من المرتاضين. وليس مرادنا إلا الكشف الناشىء عن الاستقامة. ومثاله أن المرآة الصقيلة إذا كانت محدَّبة أو مقعَّرة، وحوذي بها جهة المرئي؛ فإنه يتشكل فيه معوجاً على غير صورته. وإن كانت مسطحة تشكل فيها المرئي صحيحاً. فالاستقامة للنفس، كالانبساط للمرآة، فيما ينطبع فيها من الأحوال. ولما عني المتأخرون بهذا النوع من الكشف، تكلموا في حقائق الموجودات العلوية والسفلية، وحقائق الملك والروح والعرش والكرسي وأمثال ذلك، وقَصُرت مدارك مَن لم يشاركهم في طريقهم عن فهم أذواقهم ومواجدهم في ذلك. وأهل الفتيا بين منكرٍ عليهم ومسلِّم لهم. وليس البرهان والدليل بنافع في هذه الطريق، ردًّا وقبولاً؛ إذ هي من قبيل الوجدانيات.

تفصيل وتحقيق:

يقع كثيراً في كلام أهل العقائد، من علماء الحديث والفقه أن الله تعالى مباين لمخلوقاته. ويقع للمتكلمين أنه لا مباين ولا متصل. ويقع للفلاسفة أنه لا داخل العالم ولا خارجه. ويقع للمتأخرين من المتصوفة أنه متحد بالمخلوقات: إما بمعنى الحلول فيها؛ أو بمعنى أنه هو عينها، وليس هناك غيره جملة ولا تفصيلاً. فلنبيِّن تفصيل هذه المذاهب ونشرح حقيقة كل واحد منها، حتى تتضح معانيها فنقول، إن المباينة تقال لمعنيين.

أحدها المباينة في الحيِّز والجهة، ويقابله الاتصال. وتشعر هذه المقابلة على هذه التقيُّد بالمكان: إما صريحاً، وهو تجسيم؛ أو لزوماً وهو تشبيه من قبيل القول بالجهة. وقد نقل مثله عن بعض علماء السلف من التصريف بهذه المباينة، فيحتمل غير هذا المعنى. من أجل ذلك أنكر المتكلمون هذه المباينة وقالوا: لا يقال في البارىء أنه مباين مخلوقاته، ولا متصل بها، لأن ذلك إنما يكون للمتحيزات. وما يقال من أن المحل لا يخلو عن الاتصاف بالمعنى وضده، فهو مشروط بصحة الاتصاف أولاً، وأما مع امتناعه فلا؛ بل يجوز الخلو عن المعنى وضدّه، كما يقال في الجماد، لا عالمٌ ولا جاهلٌ ولا قادرٌ ولا عاجزٌ ولا كاتبٌ ولا أُمِّي. وصحة الاتصاف

بهذه المباينة مشروط بالحصول في الجهة على ما تقرر من مدلولها. والبارىء سبحانه منزَّه عن ذلك. ذكره ابن التلمساني في شرح اللمع لإمام الحرمين وقال: «ولا يقال في البارىء مباين للعالَم ولا متصل به، ولا داخل فيه ولا خارج عنه. وهو معنى ما يقوله الفلاسفة أنه لا داخل العالم ولا خارجه، بناء على وجود الجواهر غير المتحيِّزة. وأنكرها المتكلمون لما يلزم من مساواتها للبارىء في أخص الصفات، وهو مبسوط في علم الكلام.

وأما المعنى الآخر للمباينة، فهو المغايرة والمخالفة؛ فيقال: البارىء مباين لمخلوقاته في ذاته وهويته ووجوده وصفاته. ويقابله الاتحاد والامتزاج والاختلاط. وهذه المباينة هي مذهب أهل الحق كلهم من جمهور السلف وعلماء الشرائع والمتكلمين والمتصوفة الأقدمين كأهل الرسالة ومَن نحا منحاهم. وذهب جماعة من المتصوفة المتأخرين الذين صيَّروا المدارك الوجدانية علمية نظرية، إلى أن البارىء تعالى متحد بمخلوقاته في هويته ووجوده وصفاته. وربما زعموا أنه مذهب الفلاسفة قبل أرسطو، مثل أفلاطون وسقراط؛ وهو الذي يعنِّيه المتكلمون حيث ينقلونه في علم الكلام عن المتصوفة ويحاولون الرد عليه لأنه ذاتان، تنتفي إحداهما، أو تندرج اندراج الجزء؛ فإن تلك مغايرة صريحة، ولا يقولون بذلك. وهذا الاتحاد هو الحلول الذي تدَّعيه النصارى في المسيح عليه السلام، وهو أغرب لأنه حلول قديم في محدَث أو اتحاده به. وهو أيضاً عين ما تقوله الإمامية من الشيعة في الأئمة. وتقرير هذا الاتحاد في كلامهم على طريقين:

الأولى: أن ذات القديم كائنة في المحدثات محسوسها ومعقولها، متحدة بها في المتصورين، وهي كلها مظاهر له، وهو القائم عليها، أي المقوِّم لوجودها، بمعنى لولاه كانت عدماً وهو رأي أهل الحلول.

الثانية: طريق أهل الوحدة المطلقة وكأنهم استشعروا من تقرير أهل الحلول الغيرية المنافية لمعقول الاتحاد؛ فنفوها بين القديم وبين المخلوقات في الذات والوجود والصفات. وغالطوا في غيرية المظاهر المدرَكة بالحس والعقل بأن ذلك من المدارك البشرية، وهي أوهام. ولا يريدون الوهم الذي هو قسيم العلم والظن والشك؛ وإنما يريدون أنها كلها عدم في الحقيقة، وجود في المدرك البشري فقط. ولا وجود بالحقيقة إلا للقديم، لا في الظاهر ولا في الباطن كما نقرره بعد، بحسب الإمكان. والتعويل في تعقُّل ذلك على النظر والاستدلال، كما في المدارك البشرية، غير مفيد؛ لأن ذلك إنما ينقل من المدارك الملكية؛ وإنما هي حاصلة للأنبياء

بالفطرة ومن بعدهم للأولياء بهدايتهم. وقصدُ مَن يقصد الحصول عليها بالطريقة العلمية ضلال. وربما قصد بعض المصنفين ذلك في كشف الموجودات وترتيب حقائقه على طريق أهل المظاهر فأتى بالأغمض فالأغمض.

وربما قصد بعض المصنفين بيان مذهبهم في كشف الوجود وترتيب حقائقه؛ فأتى بالأغمض فالأغمض، بالنسبة إلى أهل النظر والاصطلاحات والعلوم. كما فعل الفرغاني، شارح قصيدة ابن الفارض، في الديباجة التي كتبها في صدر ذلك الشرح؛ فإنه ذكر في صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه، أن الوجود كله صادر عن صفة الوحدانية، التي هي مظهر الأحدية، وهما معاً صادران عن الذات الكريمة التي هي عين الوحدة لا غير. ويسمون هذا الصدور بالتجلي.

وأول مراتب التجليات عندهم تجلي الذات على نفسه، وهو يتضمن الكمال بإفاضة الإيجاد والظهور، لقوله في الحديث الذي يتناقلونه: «كنت كنزاً مخفيًّا، فأحببت أن أُعرف، فخلقتُ الخلقَ ليعرفوني». وهذا الكمال في الإيجاد المتنزِّل في الوجود وتفصيل الحقائق، وهو عندهم عالم المعاني والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية، وفيها حقائق الصفات واللوح والقلم وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين، والكُمَّل من أهل الملة المحمدية. وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية. ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة البهائيَّة، وهي مرتبة المثال؛ ثم عنها العرش، ثم الكرسي، ثم الأفلاك، ثم عالم العناصر، ثم عالم التركيب. هذا في عالم الرِّتق، فإذا تجلت، فهي في عالم الفتق. انتهى.

ويسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلي والمظاهر والحضرات، وهو كلام لا يقدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه، وبُعد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل. وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب فإنه لا يُعرف في شيء من مناحيه. وكذلك ذهب آخرون منهم إلى القول بالوحدة المطلقة، وهو رأي أغرب من الأول في تعقله وتفاريعه، يزعمون فيه أن الوجود له قوى في تفاصيله، بها كانت حقائق الموجودات وصورها وموادها.

والعناصر إنما كانت بما فيها من القوى، وكذلك مادتها لها في نفسها قوة بها كان وجودها. ثم إن المركبات فيها تلك القوى متضمنة في القوة التي كان بها التركيب. كالقوة المعدنية فيها قوى العناصر بهيولاها، وزيادة القوة المعدنية؛ ثم القوة الحيوانية تتضمن القوة المعدنية وزيادة قوتها في نفسها؛ وكذا القوة الإنسانية مع

الحيوانية؛ ثم الفلك يتضمن القوة الإنسانية وزيادة. وكذا الذوات الروحانية والقوة الجامعة للكل من غير تفصيل، هي القوة الإلهية التي انبثَّت في جميع الموجودات كلية وجزئية، وجمعَتها وأحاطت بها من كل وجه، لا من جهة الظهور ولا من جهة الخفاء ولا من جهة الصورة، ولا من جهة المادة؛ فالكل واحد وهو نفس الذات الإلهية، وهي في الحقيقة واحدة بسيطة، والاعتبار هو المفصِّل لها؛ كالإنسانية مع الحيوانية. ألا ترى أنها مندرجة فيها وكائنة بكونها. فتارة يمثِّلونها بالجنس مع النوع، في كل موجود كما ذكرناه؛ وتارة بالكل مع الجزء، على طريقة المثال. وهم في هذا كله يفرون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه، وإنما أوجبها عندهم الوهم والخيال. والذي يظهر من كلام ابن دهقان في تقرير هذا المذهب، أن حقيقة ما يقولونه في الوحدة شبيه بما يقوله الحكماء في الألوان، من أن وجودها مشروط بالضوء؛ فإذا عُدم الضوء لم تكن الألوان موجودة بوجه.

وكذا عندهم الموجودات المحسوسة كلها مشروطة بوجود المُدْرَك الحسي؛ بل والموجودات المعقولة والمتوهَّمَة أيضاً مشروطة بوجود المدرك العقلي؛ فإذا الوجود المفصل كله مشروط بوجود المدرك البشري. فلو فرضنا عدم المدرك البشري جملة لم يكن هناك تفصيل في الوجود، بل هو بسيط واحد. فالحَرُّ والبرد، والصلابة واللين، بل والأرض والماء، والنار والسماء والكواكب، إنما وُجدت لوجود الحواس المدركة لها؛ لما جُعِل في المُدرَك من التفصيل، الذي ليس في الموجود، وإنما هو في المدارك فقط. فإذا فُقدت المدارك المفصَّلة فلا تفصيل، إنما هو إدراك واحد، وهو أنا لا غيره. ويعتبرون ذلك بحال النائم؛ فإنه إذا نام وفقد الحس الظاهر، فقد كل محسوس، وهو في تلك الحالة، إلا ما يُفَصِّله له الخيال. قالوا: فكذلك اليقظان إنما يعتبر تلك المدركات كلها على التفصيل بنوع مدركه البشري، ولو قدِّرَ فقدُ مدركه فُقِدَ التفصيل؛ وهذا معنى قولهم: الوهم، لا الوهم الذي هو من جملة المدارك البشرية.

وهذا ملخص رأيهم على ما يُفهم من كلام ابن دهقان، وهو في غاية السقوط؛ لأنا نقطع بوجود البلد الذي نحن مسافرون إليه يقيناً مع غيبته عن أعيننا، وبوجود السماء المُظِلة والكواكب وسائر الأشياء الغائبة عنا. والإنسان قاطع بذلك، ولا يكابر أحد نفسه في اليقين، مع أن المحققين من المتصوفة المتأخرين يقولون: إن المريد عند الكشف ربما يعرض له توهم هذه الوحدة، ويسمى ذلك عندهم مقام الجمع ثم يترقى عنه إلى التمييز بين الموجودات، ويُعَبِّرون عن ذلك بمقام الفرق، وهو مقام

العارف المحقق. ولا بد للمريد عندهم من عقبة الجمع، وهي عقبة صعبة؛ لأنه يُخشى على المريد من وقوفه عندها، فتخسر صفقته. فقد تبينتَ مراتب أهل هذه الطريقة.

ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس، توغلوا في ذلك؛ فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة كما أشرنا إليه، وملأوا الصحف منه، مثل الهروي، في كتاب المقامات له، وغيره. وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ثم ابن العفيف وابن الفارض والنجم الإسرائيلي في قصائدهم. وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول وإلهية الأئمة، مذهباً لم يُعرف لأولهم؛ فأُشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر. واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم. وظهر في كلام المتصوفة القول بالقُطب، ومعناه رأس العارفين. يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة، حتى يقبضه الله. ثم يورِّث مقامه الآخر من أهل العرفان. وقد أشار إلى ذلك ابن سينا في كتاب الإشارات، في فصول التصوف منها، فقال: «جلَّ جنابُ الحق أن يكون شِرْعَة لكل وارد، أو يطَّلِع عليه إلا الواحد بعد الواحد». وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي؛ وإنما هو من أنواع الخطابة، وهو بعينه ما تقوله الرافضة في توارث الأئمة عندهم. فانظر كيف سرقت طباع هؤلاء القوم هذا الرأي من الرافضة ودانوا به. ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب، كما قاله الشيعة في النقباء. حتى أنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف، ليجعلوه أصلاً لطريقتهم ونِحلتهم، رفعوه إلى علي رضي الله عنه، وهو من هذا المعنى أيضاً. وإلاّ فعليٌّ، رضي الله عنه، لم يُختص من بين الصحابة بنِحلة ولا طريقة في لباس ولا حال. بل كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، أزهد الناس بعد رسول الله ﷺ وأكثرهم عبادة. ولم يُختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه على الخصوص، بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة.

تشهد بذلك سِيَرهم وأخبارهم. نعم إن الشيعة يخيِّلون بما ينقلون من ذلك اختصاص علي بالفضائل دون مَن سواه من الصحابة ذهاباً مع عقائد التشيُّع المعروفة لهم. والذي يظهر أن المتصوفة بالعراق، لما ظهرت الإسماعيلية من الشيعة، وظهر كلامهم في الإمامة وما يرجع إليها ما هو معروف؛ فاقتبسوا من ذلك الموازنة بين الظاهر والباطن وجعلوا الإمامة لسياسة الخلق في الانقياد إلى الشرع، وأفردوه بذلك أن لا يقع اختلاف كما تقرر في الشرع. ثم جعلوا القُطب لتعليم المعرفة بالله لأنه

رأس العارفين، وأفردوه بذلك تشبيهاً بالإمام في الظاهر، وأن يكون على وزانه في الباطن وسمَّوْهُ قطباً لمدار المعرفة عليه، وجعلوا الأبدال كالنقباء مبالغة في التشبيه. فتأمَّل ذلك.

يشهد بذلك كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي، وما شحنوا به كتبهم في ذلك، مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي أو إثبات؛ وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم. والله يهدي إلى الحق.

تذييل: وقد رأيت أن أجلب هنا فصلاً من كلام شيخنا العارف، كبير الأولياء بالأندلس، أبي مَهدي عيسى بن الزيات، كان يقع له أكثر الأوقات على أبيات الهروي التي وقعت له في كتاب المقامات توهم القول بالوحدة المطلقة أو يكاد يصرح بها وهي قوله:

ما وحّد الواحِدَ من واحِدٍ إذْ كلُّ مَن وحَّدَهُ جاحِدُ
توحيدُ مَن يَنطِقُ عن نَعْتِهِ تثنيَةٌ أَبطَلَها الواحِدُ
توحيدُهُ إيَّاهُ توْحيدُهُ ونعتُ مَن ينعَتُه لاحِدُ

فيقول رحمه الله على سبيل العذر عنه: «استشكل الناس إطلاق لفظ الجحود على كل مَن وحّد الواحد ولفَظَ الإلحاد على مَن نعته ووصفه. واستبشعوا هذه الأبيات وحملوا قائلها على الكفر واستخفوه. ونحن نقول على رأي هذه الطائفة أن معنى التوحيد عندهم انتفاء عين الحدوث بثبوت عين القِدَم وأن الوجود كله حقيقة واحدة وآنية واحدة. وقد قال أبو سعيد الخرّاز من كبار القوم: الحق عين ما ظهر وعين ما بطن. ويرون أن وقوع التعدد في تلك الحقيقة وجود الاثنَيْنِيَّة. وهم باعتبار حضرات الحس بمنزلة صُوَر الضلال والصدا والمرأى. وأن كل ما سوى عين القِدَم، إذا استُتْبع فهو عدم. وهذا معنى: كان الله؛ ولا شيء معه؛ وهو الآن على ما هو عليه، كان عندهم. ومعنى قول لبيدٍ الذي صدَّه رسول الله ﷺ في قوله: «ألا كلُّ شيء، ما خلا الله، باطل». قالوا فمَن وحَّد ونعت، فقد قال بموجد مُحْدَث، هو نفسه؛ وتوحيد محدَث هو فعله، موجد قديم، هو معبود.

وقد تقدم معنى التوحيد انتفاء عين الحدوث، وعين الحدوث الآن ثابتة بل متعددة، والتوحيد مجحود، والدعوى كاذبة. كمَن يقول لغيره، وهما معاً في بيت واحد: ليس في البيت غيرك! فيقول الآخر بلسان حاله: لا يصح هذا إلا لو عُدِمْتَ

أنت!... وقد قال بعض المحققين في قولهم: «خلق الله لزمان»، هذه ألفاظ تُناقض أصولها، لأن خلق الزمان متقدم على الزمان، وهو فعل لا بد من وقوعه في الزمان؛ وإنما حمل ذلك ضيق العبارة عن الحقائق وعجز اللغات عن تأدية الحق فيها وبها. فإذا تحقق أن الموحد هو الموحد، وعدم ما سواه جملة، صح التوحيد حقيقة. وهذا معنى قولهم: «لا يعرف اللّهَ إلا اللّهُ». ولا حرج على مَن وحَّد الحق مع بقاء الرسوم والآثار؛ وإنما هو من باب: «حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين». لأن ذلك لازم التقييد والعبودية والشفعية. ومَن ترقى إلى مقام الجمع كان في حقه نقصاً، مع علمه بمرتبته، وأنه تلبيس تستلزمه العبودية ويرفعه الشهود، ويطهر من دنس حدوثه عين الجمع. وأعرق الأصناف في هذا الزعم القائلون بالوحدة المطلقة. ومدار المعرفة بكل اعتبار على الانتهاء إلى الواحد؛ وإنما صدر هذا القول من الناظم على سبيل التحريض والتنبيه والتفطين، لمقام أعلى، ترتفع فيه الشفعية ويحصل التوحيد المطلق، عيناً لا خطاباً. وعبارة فمَن سلَّم استراح، ومَن نازعته حقيقة أَنِسَ بقوله: كنت سمعه وبصره. وإذا عرفتَ المعاني لا مشاحة في الألفاظ. والذي يفيده هذا كله تحقق أمر فوق هذا الطور، لا نطقَ فيه ولا خبرَ عنه. وهذا المقدار من الإشارة كاف. والتعمق في مثل هذا حجاب، وهو الذي أوقع في المقالات المعروفة». انتهى كلام الشيخ أبي مَهدي الزيات، ونقلتُه من كتاب الوزير ابن الخطيب الذي ألَّفه في المحبة، وسماه التعريف بالحب الشريف. وقد سمعته من شيخنا أبي مهدي مراراً! إلا أني رأيت رسوم الكتاب أوعى له، لطول عهدي به. والله الموفق.

ثم إن كثيراً من الفقهاء وأهل الفتيا، انتُدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين في هذه المقالات وأمثالها، وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم في الطريقة. والحق أن كلامهم معهم فيه تفصيل، فإن كلامهم في أربعة مواضع: أحدها الكلام على المجاهدات وما يحصل من الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الأعمال، لتحصُل تلك الأذواق، التي تصير مقاماً ويُترقى منه إلى غيره كما قلناه؛ وثانيها الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالَم الغيب، مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد، وتركيب الأكوان في صدورها عن موجدها ومكونها كما مر؛ وثالثها التصرفات في العوالم والأكوان بأنواع الكرامات؛ ورابعها ألفاظ موهَمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم، يعبِّرون عنها في

اصطلاحهم بالشطحات، تُستشكل ظواهرها، فمنكر ومحسن ومتأول. فأما الكلام في المجاهدات والمقامات، وما يحصل من الأذواق والمواجد في نتائجها، ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها؛ فأمر لا مدفع فيه لأحد، وأذواقهم فيه صحيحة، والتحقق بها هو عين السعادة؛ وأما الكلام في كرامات القوم وإخبارهم بالمغيّبات وتصرفهم في الكائنات، فأمر صحيح غير منكر. وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من الحق. وما احتج به الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني من أئمة الأشعرية على إنكارها، لالتباسها بالمعجزة، فقد فرّق المحققون من أهل السنة بينهما بالتحدي، وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به. قالوا: ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور، لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية؛ فإن صفة نفسها التصديق. فلو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال. هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات، وإنكارها نوع مكابرة.

وقع وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من ذلك، وهو معلوم مشهور. وأما الكلام في الكشف وإعطاء حقائق العُلويات وترتيب صدور الكائنات؛ فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه، لما أنه وجداني عندهم؛ وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه. واللغات لا تعطي دلالة على مرادهم منه؛ لأنها لم توضع إلا للمتعارف، وأكثره من المحسوسات. فينبغي أن لا نتعرض لكلامهم في ذلك، ونتركه فيما تركناه من المتشابه. ومَن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات، على الوجه الموافق لظاهر الشريعة؛ فأكرِم بها سعادة. وأما الألفاظ الموهَمَة التي يعبّرون عنها بالشّطحات، ويؤاخذهم بها أهل الشرع، فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس، والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه، وصاحب الغيبة غير مخاطِب، والمجبور معذور.

فمَن عُلم منهم فضله واقتداؤه، حُمل على القصد الجميل من هذا وأمثاله. وإن العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها، كما وقع لأبي يزيد البسطامي وأمثاله. ومَن لم يُعلم فضله ولا اشتهر، فمؤاخَذ بما صدر عنه من ذلك، إذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه. وأما مَن تكلم بمثلها، وهو حاضر في حسه، ولم يملكه الحال، فمؤاخذ أيضاً. ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر المتصوِّفة بقتل الحلاّج، لأنه تكلم في حضور، وهو مالكٌ لحاله. والله أعلم.

وسلفُ المتصوفة من أهل الرسالة أعلام الملة الذين أشرنا إليهم من قبل، لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب، ولا هذا النوع من الإدراك؛ إنما همهم الاتباع والاقتداء ما استطاعوا. ومَن عَرَضَ له شيء من ذلك أعرض عنه ولم يحفل به، بل يفِرُّون منه ويرون أنه من العوائق والمحن، وأنه إدراك من إدراكات النفس مخلوق حادث، وأن الموجودات لا تنحصر في مدارك الإنسان. وعلم الله أوسع وخلقه أكبر، وشريعته بالهداية أملك؛ فلم ينطقوا بشيء مما يدركون. بل حظروا الخوض في ذلك ومنعوا مَن يُكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده، بل ويلتزمون طريقتهم كما كانوا في عالَم الحس قبل الكشف عن الاتباع والاقتداء، ويأمرون أصحابهم بالتزامها. وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد. والله الموفق للصواب.

مقدمة الكتاب

قال أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن الترمذي رحمة الله عليه: الحمد لله رب العالمين، ولي الحمد وأهله. أما بعد.

فإن الله تعالى خلق الآدميين لخدمته، وخلق ما سواهم سخرة لهم، فقال تعالى في تنزيله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٨]، ثم قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، فجعل في كلٍّ مسخراً لما يحتاج إليه هؤلاء الخدم، وما يرجع نفعه إليهم.

وهم كلهم قانتون، يؤدون السخرة إلى هؤلاء الخدم، فأظهر خلقهم من القدرة بقوله: ﴿كُن﴾(١) [يس: ٨٢] وأظهر خلق هؤلاء الخدم من المحبة بيده، فعجن طينته، وصوَّره بيده، ثم جعله ذا أجزاء، كل جزء منه يعمل عملاً غير عمل الآخر، ثم نفخ فيه من روحه، وهو روح الحياة.

ونفست الطينة(٢) فبدت النفس واستقرت، وتنفست في الجوف، فجعل ظاهره

---

(١) ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم ١١ مرة. وهي:

١ - ٢ - ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧ وآل عمران: ٣].

٣ - ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

٤ - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

٥ - ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

٦ - ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر: ٩٨].

٧ - ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠].

٨ - ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥].

٩ - ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

١٠ - ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٦].

١١ - ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨].

(٢) النَّفْسُ: الروح، وخرجت نفسه، ونفست من تنفس ونفس، وهي دليل الحياة ومظهرها، والنَّفَسُ: الريح تدخل وتخرج من أنفس الحي ذي الرئة وفمه حال التنفس. ونفست الطينة: دبت فيها الروح (القاموس المحيط «نفس» ولسان العرب «نفس»).

يدين ذواتي أصابع ومفاصل، يبسط ويقبض، ورجلين موشحتين في الوركين، ذواتي ساقين، وقدمين. . يختلف بهما في قطع المسافات، وعينين بهما يشتمل على الألوان لذة وجهداً، وأذنين بهما يتناول الأصوات لذة وخبراً، ولساناً يديره في قبو حنكه إلى شفتيه ليتلفظ بنعماته[١] من صدره إلى شفتيه.

مؤدية تلك النغمات معاني الأمور التي يعقل، وتتردد في صدره صور تلك الأمور، فتصير تلك الصور حروفاً مؤلفة، فيبرزها بصوت يسمع به آذان المستمعين له، حتى تصير تلك الأسماع قمعاً لهذا الصوت، فيتحول ما في صدر هذا من علم الأمور، إلى صدر المستمع من طريق فم هذا إلى أذن الآخر.

فيكون قد أفرغ ما في صدره من صور الأمور، ومعانيها بالحروف والصوت، إلى صدر صاحبه.

وجعل له منخرين للنفس والمشام، ومعدة صيَّرها دار رزقه، وباب هذه الدار متصل بالقبو، وبابين في أسفل جسده، أحدهما مخرج للذرية، والآخر مخرج الفضول والأذى، وذلك أن العدو لما غرّه حتى أكل من الشجرة[٢]، وجد السبيل إلى معدته بتلك الأكلة التي أطاعه فيها، فجعله مستقره، فنتن ما في المعدة لرجاسة العدو.

فمن هاهنا وجب علينا غسل الأطراف مما يظهر من المعدة من الغائط والبول وريحهما.

ثم وضع في جوفه بضعة جوفاء سماها قلباً وفؤاداً، فما بطن منها فهو القلب، وما ظهر منها فهو الفؤاد.

وإنما سمي قلباً لأنه ينقلب بتقليب الله عزّ وجل إياه، لأنه بين أصبعين من أصابع الرحمٰن عزّ وجل، يقلبه بمشيئاته فيه[٣]، وسمي فؤاداً لأنه غشاء لتلك

---

(١) بنعماته: كذا بالأصل، بالعين المهملة، ولعلها «بنغماته» بالغين المعجمة، ودليله قوله بعد ذلك: مؤدية تلك النغمات.

(٢) يشير إلى إغراء إبليس، لعنه الله، آدم عليه السلام بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عزّ وجل من الأكل منها. فأكل آدم منها بإغراء إبليس.

(٣) يشير إلى الحديث الشريف: عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ قال: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمٰن، كقلب واحد، يصرّفه حيث يشاء» ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرّف القلوب! صرّف قلوبنا على طاعتك».

أخرجه مسلم في القدر حديث ١٧، والترمذي في القدر باب ٧، والدعوات باب ٨٩، وابن ماجه في المقدمة باب ١٣، وأحمد في المسند ٢/١٦٨، ١٧٣، ٦/١٨٢، ٢٥١، ٣٠٢، ٣١٥.

البضعة الباطنة، ومنه يقال: هذا خبز فنيد[١]، وخبز ملة[٢]، لأنه خبزة قد ظاهرها أخرى.

وجعل له على هذا الفؤاد عينين وأذنين، وباباً في الصدر، وصيَّر القلب بيتاً له عينان وأذنان، وباباً في الصدر، وجعل الصدر ساحة هذا البيت، وجعل إلى جانبه بضعة أخرى سماها كبداً.

وجعلها مجمع عروق هذا الجسد كله، ومنه ينقسم ما يخرج من المعدة من قوة الطعام الذي طحنته المعدة، حتى صار دماً طرياً، فجرى في جميع العروق.

وألصق بأسفله بضعة أخرى، فسماها طحالاً، وإلى جانب الأخرى سماها رئة، ومسكن النفس فيها، ومنها تتنفس النفس لحياتها التي فيها، فتخرج الأنفاس إلى الفم والمنخرين.

ثم وضع بين القلب والرئة وعاءً رقيقاً، فيه ريح هفّافة، تجري في العروق مجرى الدم، وأصل تلك الريح من باب النار، مخلوقة من نار جهنم، لم يصل إليها سلطان الله وغضبه، فتسود كما اسودت جهنم.

بل هي نار مضيئة حفت النار بها، موضوع هذه النار الفرح والزينة، وسماها شهوة، وإنما سميت شهوة لاهتشاش النفس إليها، يقال: اهتشت واشتهت.

الاهتشاش في الظاهر، والاشتهاء في الباطن، وكلاهما في الحروف عددهما سواء، إلا أنه قدّم الهاء هاهنا وأخّر هناك، ليكون فرقاً بين النوعين.

فالنفس إذا هبّت تلك الريح من ذلك الوعاء لعارض ذكر شيء، أحست النفس بذلك، فالتهبت نار الحرارة بتلك الريح، والنفس مسكنها في الرئة، ثم هي منفشة في جميع الجسد، والروح مسكنه في الرأس إلى أصل الأذنين، ومعقلها في الوتين[٣]، وهي منفشة في جميع الجسد، والروح فيه حياة، والنفس فيها حياة، فهما يعملان في جميع الجسد لحياتهما.

---

(١) الفِنْدُ: الغصن، والنوع، والقوم مجتمعة. وأفناد الليل: أركانه. و«صلى الناس على النبي ﷺ أفناداً أفناداً» أي فرادى بلا إمام، وقيل: جماعات جماعات (القاموس المحيط «فند»).

(٢) خبز الملة: ما يخبز في الملة، وهي الرماد الحار يحمى ليدفن فيه الخبز لينضج (لسان العرب «ملل»).

(٣) الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه. جمعه: وُتْنٌ وأوتنة (القاموس المحيط «وتن»).

حتى تتحرك الجوارح في جميع الجسد في الظاهر والباطن بالحياتين اللتين وضعتا فيهما، والروح نور فيه روح الحياة، والنفس ريح كدرة جنسها أرضية، وفيها روح الحياة. ووضع الرحمة في الكبد، والرأفة في الطحال، والمكر في الكليتين، وعلم الأشياء في الصدر.

وجعل مستقر الذهن في الصدر، ثم هو متفشٍّ في البدن كله، والذهن يقبل العلم جملة، وقرينه الحفظ، وجعل في ناصيته الفهم، وجعل له طريقاً إلى عين الفؤاد فالحفظ مستودع العلم.

فإذا احتاج الفؤاد إلى شيء لحظ إلى الحفظ، فأبرز الحفظ له علم ذلك الشيء المستودع الذي قد تعلمه.

وجعل ماء الذرية في صلبه، فمنه ماء أخذ عليه الميثاق يوم أخرجهم من الظهور[١]، فعرضهم على آدم ﷺ، ومنه ماء لم يؤخذ عليه الميثاق، وجعل مجراه من صلبه إلى نفسه. ووضع الفرح في قلبه، وجعل مجراه إلى صلبه، لتتأدى حرارة ذلك الفرح إلى الصلب، فتذيب ماء الصلب، فبقوة هذا الفرح يخرج ذلك الماء، فيدفق به، وإنما صار دفقاً لقوة الفرح، وهبوب رياحها، وضيق المخرج.

فإذا افتقد الإنسان الفرح عجز عن الدفق. فهذا لعامة الآدميين. ثم خصّ المؤمنين بنور العقل، فجعل مسكنه في الدماغ، وجعل له باباً من دماغه إلى صدره، ليشرق شعاعه بين عيني الفؤاد، ليدبر الفؤاد بذلك النور الأمور، فيميز بين الأمور ما حسن منها وما قبح.

ووضع نور التوحيد في باطن هذه البضعة، وهي القلب، وفيه نور الحياة فحيى القلب بالله تبارك وتعالى، وفتح عيني الفؤاد، فأشرق نور التوحيد إلى الصدر من باب القلب فأبصر عينا الفؤاد بنور الحياة التي بها نور التوحيد، فوحّد الله عزّ وجل، وعرفه.

وميّز العقل تلك العلوم التي أعطى الذهن في صدره جملة، فيصيرها شعباً شعباً، فصارت معرفة حين انشعبت، فهذا عمل العقل في الصدر.

---

(١) ومنه الحديث: عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان ـ يعني: عرفة، فأخرجه من صلبة كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذرّ...» أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٧٢.

صفات ظاهرة وباطنة

والهوى أصله من نفس النار، فإذا خرج ذلك النفس من النار، احتمل من ذلك الحفوف من الشهوات بباب النار فيها الزينة والأفراح، فأورد على النفس.

فإذا نالت النفس ذلك الفرح والزينة، هاجت بما فيها من الفرح والزينة الموضوعة إلى جانبها في ذلك الوعاء، وهي ريح حارة، فدبّت في العروق، فامتلأت العروق منها في أسرع من الطرفة.

والعروق مشتملة على جميع الجسد، من القرن إلى القدم، فإذا دبّت في العروق، ولذّت النفس دبيها وانفشاشها في الجسد، وامتلأت النفس لذة، وهشّت إلى ذلك الشيء، فتلك شهوتها ولذتها.

فإذا تمكنت النفس بتلك الشهوة واللذة من جميع الجسد، فصارت تلك الشهوة نهمة على القلب، والنهمة غلبة الشهوة وغليانها، فإذا غلت الشهوة غلبت على القلب، فيصير القلب منهوماً، وهو أن تقهر القلب حتى تتمنه، فتستعمله بذلك، فيصير سلطان الهوى والشهوة مع النفس ومسكنها في البطن.

وسلطان المعرفة والعقل والعلم والفهم والحفظ والذهن في الصدر، وجعل المعرفة في القلب، والفهم في الفؤاد، والعقل في الدماغ، والحفظ قرينه.

وجعل للشهوة باباً من مستقره إلى الصدر، يفور دخان تلك الشهوات التي جاء بها الهوى، حتى يتأدّى ذلك إلى الصدر، فيحيط بفؤاده، وتبقى عينا الفؤاد في ذلك الدخان، وذلك الدخان اسمه الحمق، قد حال بين عيني الفؤاد وبين النظر إلى نور العقل ماذا يدبر له.

وكذلك الغضب إذا فار، فهو كالغيم يقف بين عيني الفؤاد حتى يصير العقل منكمناً، لأن العقل مستقره في الدماغ، وشعاعه مشرق إلى الصدر، فإذا خرج ذلك الغيم (غيم الغضب) من الجوف إلى الصدر، امتلأ الصدر منه، وبقيت عينا الفؤاد في ذلك الغيم.

لأن شعاع العقل قد انقطع، وحال الغيم بينه وبين الفؤاد، فصار الفؤاد من الكافر في ظلمة الكفر، وهي الغلفة التي ذكرها الله تعالى في التنزيل: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨] وقال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣]. وصار الفؤاد من المؤمن في دخان الشهوات وغيوم الكبر، فذلك غفلة.

ومن الكبر أصل الغضب والكبر في النفس. لما أحست بما ولى الله تعالى من خلقها، فيبقى ذلك الكبر فيها. فهذه صفة ظاهرة الآدمي وباطنة.

فوقعت الجباية من الله تعالى والخيرة على هذا الموحد، من كل ألف واحد، وبقي تسع مئة وتسعة وتسعون، رفع البال عنهم، وجعل باله لواحد من كل ألف من الآدميين، فقسم الحظوظ يوم المقادير بالبال، ورفض مَن لم يبالِ به، فخابوا عن الحظوظ.

فلما استخردهم[1] ذرية من الأصلاب استنطقهم، فاعترف له أهل الحظوظ من باله، طوعاً لقوله عزّ وجل حين قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. واعترف مَن خاب عن الحظوظ، ومَن لم ينل من باله بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ كرهاً، فذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، فيصيرهم فريقين: عن اليمين وعن الشمال.

ثم قال تعالى: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، أي لا أبالي بمغفرتي أن تنالهم، وهؤلاء في النار ولا أبالي، أي ولا أبالي بهؤلاء إلى أين يصيرون[2].

ثم ردّهم إلى صلب آدم عليه السلام، فيخرجهم في أيام الدنيا للأعمال وإقامة الحجة فكل مَن وقعت عليه جبايته واختياره له، وصبغ قلبه، أي غمس قلبه في ماء الرحمة حتى طهر به، وهو قوله عزّ وجل: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨] ثم أحياه بنور الحياة وقد كان قبل ذلك بضعة من لحم جوفاً.

فلما أحياه بنور الحياة تحرّك وفتح عينيه اللتين على الفؤاد، ثم هداه بنوره، وهو

---

(١) استخردهم: كذا بالأصل، ولعلها: استخرجهم. وفي القاموس المحيط «خرد»: الخريد والخرود: البكر لم تمسس، أو الخفرة الطويلة السكوت، الخافضة الصوت المستترة، وصوت خريدٌ: ليّنٌ عليه أثر الحياء. وأخرد: استحيا.

(٢) في الحديث الشريف: عن معاذ قال: إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ و﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ فقبض بيديه قبضتين فقال: «هذه في الجنة ولا أبالي، وهذه في النار ولا أبالي». أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٣٩.

نور التوحيد، ونور العقل، فلما أشرف في صدره، واستقر الفؤاد وهو القلب إلى ذلك النور، فعرف ربه عزّ وجل بذلك، فذلك قوله عزّ وجل: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي بنور الحياة.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي نور التوحيد يمشي من ذلك النور في الناس.

ثم أوله قلبه بذلك النور إليه، حتى اطمأنت النفس وسكنت إلى أنه وحده لا إله غيره فعندها نطق اللسان عن طمأنينة النفس وموافقتها للقلب بلا إله إلا الله، وذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠] وهو قوله عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ [الفجر: ٢٧].

فلما اطمأنت النفس حين رأت تلك الزينة التي زيّن العقل بين عيني الفؤاد توحيد الرب عزّ وجل، وجدت حلاوة حب الله تعالى، التي وردت على القلب مع نور التوحيد، فلما رأت تلك الزينة وجدت حلاوة الحب الذي في نور التوحيد، فعندها اطمأنت وسكنت إلى توحيده، فشهدت بلا إله إلا الله، وذلك قوله عزّ وجل: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

فلما نالت النفس تلك الزينة كرهت الكفر والفسوق والعصيان.

فالمؤمن إذا أذنب فإنما يعصي بالشهوة والنهمة وهو كاره للفسوق والعصيان، ومع الكراهية يفسق ويعصي بغفلة، ولا يقصد الفسق والعصيان كما قصد إبليس.

فتلك الكراهية موجودة فيه، والشهوة غالبة عليه، والكراهية من أجل التوحيد الذي فيه، إلا أن القلب مقهور بما فيه، والعقل منكمن، والصدر ممتلىء من دخان تلك الشهوة، والنفس بما أوردت قاهرة للقلب.

لأن العقل قد غلب، والمعرفة قد انفردت، والذهن قد تبدّد، والحفظ مع العقل منكمن في الدماغ، والنفس قد قامت على ذنبها، بما وجدت من القوة في تلك الشهوة، والعدو يزين ويرجي ويمني المغفرة، ويدل على التوبة، حتى يجرئه قلباً ويشجعه.

المجاهدة[1]

فلما كان العبد بهذه الصفة، أما بالمجاهدة، فقال عزّ وجل: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨].

ثم لما علم أن المجاهدة تشتد وتصلب على العباد، أخبرهم عن منّته وحسن صنيعه، وبره، ولطفه بهم، فقال عزّ وجل: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج: ٧٨].

يعلمهم أنه لو لم يجتبيهم، ولم يوقع اختياره عليهم، ما كانوا ينالون نور الرحمة ونور المعرفة، وكانوا أسارى في يد العدو، وحطباً للنار، فأخبرهم أنه اجتباهم.

ثم قال عزّ وجل: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج: ٧٨] يعلمهم أني حين ألزمت جوارحكم أمري ونهيي، لم أضيّق عليكم حتى تحرجوا، بل أبحت لكم ووسعت عليكم ما لا يضيق عليكم، حتى تفزعوا إلى الحرام.

ولم أحملكم فرائضي حملاً تعجزون عنه، ووسعت لكم في كل فريضة ما لم يضيق عليكم، وكل شهوة منعتكم عنها، أطلقت لكم من بعضها، فوضعت على كل جارحة من هذه السبع حداً، ووكلتكم بحفظها.

الجوارح السبع هي: اللسان، والسمع، والبصر، واليدان، والرجلان، والبطن، والفرج، وجعلت مستقر هذه الشهوة في البطن.

فإن اشتهى الكلام خرج سلطان تلك الشهوة إلى الصدر وإلى القلب، والقلب أمير على هذه الجوارح، فإذا غلب سلطان الشهوة وحلاوتها ولذتها على القلب،

---

(١) المجاهدة في اصطلاح الصوفية، عبارة عن الحرب مع النفس والشيطان. وفي خلاصة السلوك: المجاهدة: صدق الافتقار إلى الله تعالى بالانقطاع عن كل ما سواه. وقال جعفر الصادق: المجاهدة بذل النفس في رضاء الحق، وقال أبو عثمان: المجاهدة فطام النفس عن الشهوات، ونزع القلب عن الأماني والشبهات. (كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي ٢/ ١٤٧٠).

وانكمن سلطان المعرفة وحلاوتها ولذتها في القلب، وسلطان العقل وزينته وبهجته في الدماغ، تحيَّر الذهن عن التدبير، وخمد نور العلم في الصدر، فظهرت المعصية على الجوارح.

وإذا غلب سلطان المعرفة ولذتها وحلاوتها، وسلطان العقل وزينته وبهجته، احتدّ الذهن، واستنار العلم، وانتشر وأشرف، وقوي القلب، فقام منصباً متوجهاً بعين فؤاده إلى الله تعالى، وجاء المدد والعطاء، وظهرت العزيمة على ترك المعصية العارضة.

فإذا ظهرت العزيمة وجد القلب قوة على زجر النفس، ورفض ما عزمت عليه، فانقمعت النفس وذابت، وسكن غليان الشهوة، وماتت اللذة، وسكنت العروق، ودرست صورة تلك المعصية عن الصدر، وتخلّص العبد.

فأمر بالمجاهدة إذا عرض ذكر شيء على الصدر، وقد حرم الله عزّ وجل الشيء عليه وذلك أنه لما عرض الذكر اهتاجت النفس لما هاجها الهوى، وأورد العدو الزينة التي وضعت بين يديه، وجعل له السبيل إلى صدره ليزين.

وتلك الزينة هي الفرج الذي وصفنا أنه بباب النار، فأصله الفرح، وحشوه الزينة، وكلاهما من النار خلقاً، سميت شهوة لاهتشاش النفس، وهو قول رسول الله ﷺ: «حُفَّت النار بالشهوات»[1].

ولذلك قال عمر رضي الله عنه في خطبته: (إن العدو مع الدنيا، وأرصاده مع الهوى، ومكره في الشهوات).

فإنما يصير العدو إلى العباد مع أفراح الدنيا وزينتها، ويرصد الهوى الذي يهيج من الآدمي، ويمكر به إذا اشتهت النفس.

(١) لفظ الحديث بتمامه: «حفت الجنة بالمكاره، وحفّت النار بالشهوات». أخرجه مسلم في الجنة، حديث ١، والترمذي حديث ٢٥٥٩، وأحمد في المسند ٢/ ٢٦٠، ٣٠٨، ٣/ ١٥٣، ٢٥٤، ٢٨٤، والدارمي ٢/ ٣٣٩، والبغوي في شرح السنة ١٤/ ٣٠٦، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٨/ ٦٢٦، والمتقي الهندي في كنز العمال ٦٨٠٥، وابن المبارك في الزهد ٣٢٥، وابن كثير في البداية والنهاية ١٢/ ١٣، والآجري في الشريعة ٣٩٠، والقرطبي في تفسيره ٤/ ٢٨، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ٤/ ٥٧، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٨/ ١٨٤، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٥/ ١٧٩٦، ٧/ ٢٦٦١، والعجلوني في كشف الخفاء ١/ ٤١٦، والسيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ٧٤.

وإنما صار مكراً لأن هذه الشهوات بعضها مطلق، وبعضها محظور، فيمكر به في المطلق له، ليجره إلى المحظور عليه، لأن النفس بلهاء، فإذا مرّت في الحلال، فتمكنت منه، سلست في الحرام، إذا لم يكن في القلب ما يقيد النفس عن الحرام، ويقويها حتى لا تسلس، وقوة القلب من النور فإذا جاهد العبد، فمن جهاده أن يروِّض نفسه فيؤديها.

وأدب النفس أن يمنعها الحلال، [أدب النفس] حتى لا تطمع في الحرام، وذلك أن النفس قد اعتادت لذة التكلم بالكلام، فإذا لم يلزمها الصمت فيما لا بد منه، حتى تعتاد السكون عن الكلام فيما لا بد منه، فقد ماتت شهوة الكلام، فاستراح وقوي على الصدق، فلا يتكلم إلا بحق، فصار سكوته عبادة، وكلامه عبادة، لأنه إن نطق نطق بحق، وإن سكت سكت بحق، لأنه سكت مخالفة الوبال.

وكانت شهوة النظر، فاعتادت النفس لذة رمي البصر حيثما وقع، من غير مبالاة، فإذا لم يلزمها الخفض عما لا بد منه، وهو أن يكون خاشع الطرف، خافض النظر، اعتادت نفسه رمي البصر، لتدرك الأشياء.

فإذا أري الحرام لم يملك بصره، لأن شهوة النظر قد أخذت بعينه فملكته، فإذا ألزم عينه الغض عن النظر، ورمى بها إلى الأرض إذا مشى وقام وقعد، ماتت شهوة النظر إلى الأشياء، واعتادت غض البصر وحفظه، فإذا نظر نظر بحق، وإذا غضّ غضّ بحق، وصار نظره عبادة، وغضه عبادة.

وكذلك شهوة السمع واليدين والرجلين والبطن والفرج. فالمجاهدة هاهنا إذا عزم العبد على مجاهدة النفس، ألزم كل جارحة من هذه الجوارح السبع الفطام عن عملها حلالاً كان أو حراماً، حتى تموت تلك الشهوة.

لأن تلك الشهوة هي شهوة واحدة، أحلّ له بعضها، وحرّم عليه بعضها، بلوى من الله تعالى لعباده، وتدبيراً لهم، فما علم أنه يصلح لهم ويصلحون عليه أطلقه لهم، وما علم أنه يفسدهم وأنهم يفسدون عليه حظره عليهم فالمطلق حلال، والمحظور حرام.

وذلك مثل الكلام، فهي شهوة واحدة، بعضها حلال، وبعضها حرام، فالاستماع إلى الأصوات بعضه حلال، وبعضه حرام، والنظر إلى الأشياء بعضه حلال، وبعضه حرام، والأخذ والإعطاء بعضه حلال، وبعضه حرام.

وكذلك المشي، والبطن والفرج كذلك، وإنما هي شهوة واحدة لكل جارحة،

أحل للعبد إمضاء تلك الشهوة، وقضاء تلك النهمة، بصفة وهيئة، وحرم عليه بصفة أخرى وهيئة، كالمرأة يطؤها بالنكاح فتحل، ويطؤها بغير نكاح فتحرم عليه، وكذلك كل شيء خرج من هذه الجوارح من الحركات.

وقد أخذ عليه يوم الميثاق إلا بعمل جارحة إلا بما أطلق له في التنزيل، وعلى ألسنة الرسل، وقبل العبد ذلك يومئذ فأوثقه بما ضمن فاقتضاه الوفاء، ولذلك سمي بالعجمية «بنده» لأنه أوثق بما قبل من الطاعة في الأمر والنهي.

فإذا وفى له بتلك البدنكية، وفى له بالعهد، وهي الجنة، فقام العبد بمجاهدة النفس عندما يعرض ذكر شهوة محرَّمة عليه، فعلى العبد أن يجاهدها بقلبه، بما فيه من المعرفة، وتعلقه بالمواعظ التي وعظه الله عزّ وجل، من الوعد والوعيد، وذكر الموت والحساب والقبر والقيامة، حتى يزجر النفس والعدو.

فإذا كان العبد لم يرض نفسه قبل ذلك ولم يؤدِّبها، ولم يعوِّدها رفض ما ذكرنا بدءاً من رفض هذه الشهوة المطلقة له. حتى تذل وتسكن، ويلزمها خوف الله عزّ وجل وخشيته لم يملك نفسه عند ذكر ما يعرض لها، ولم يقدر على تسكينها، بل هي تغلب القلب بما فيها من سلطان الفرح، والزينة، والشهوة، فيصير القلب أسيراً للنفس، بعد أن كان أميراً على النفس.

لأن إمارة القلب بالمعرفة، وبما أعطي من هذه الأنوار التي وصفنا، ومن نور العقل، ونور الحفظ، ونور الفهم، ونور العلم، ونور السكينة فأجمل للعبد في الأمر.

فقيل له: جاهد في الله عزّ وجل حق جهاده، فمَن لم يرض نفسه قبل ذلك، فإذا جاهد فربما غَلَبَ وربما غُلبَ، فلذلك يوجد العبد مرة طائعاً، ومرة عاصياً في شهوة واحدة.

[الأكياس]

فأما الأكياس فراضوا[1] أنفسهم، فأدّبوها، فامتنعوا من الحلال المطلق لهم، حتى هدأت جوارحهم، وإنما هدأت وسكنت لسكون غليان شهوة النفس، فإذا استعملوها كان القلب أميراً قاهراً، فاستعمل تلك الشهوة بما يريه العقل، ويزين له، ويحد له، فيؤدب بأدب الله عزّ وجل الذي أدّبه.

فهناك يملك نفسه أن تقف على الحلال. فلا تجاوزه، فهو ينطق، فإذا بلغ في منطقه مكاناً يصير ذلك الكلام عليه غيبة أو كذباً، ملك نفسه، فامتنع وتورّع.

لأن شهوة الكلام قد ماتت منه. فهو يتكلم لله عزّ وجل، وابتغاء مرضاته. وكذلك النظر، إذا كان قد راوض نفسه حتى ماتت منه شهوة النظر، ملك نفسه عند الحرام، وملك السمع، وسائر الجوارح السبع.

روي أن سهل بن علي المروزي[2] ـ رحمه الله تعالى ـ كان إذا مشى في السوق حَشَى أذنيه بالقطن، ورمى ببصره إلى الأرض، وكان يقول لامرأة أخيه وهي في الدار معه: استتري مني.

وكان ذلك دأبه زماناً، ثم ترك ذلك ورمى بالقطن، ورفع بصره إلى الناس، وقال لامرأة أخيه: كوني كيف شئت، فذلك منه حيث وجد شهوته ميتة.

وروي عن عامر بن عبد قيس[3] ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال: ما أبالي امرأة لقيت أو حائطاً..

(١) راضوا: من الرياضة، ورياضة النفس عند الحكماء هي الإعراض عن الأعراض الشهوانية، وقيل: الرياضة ملازمة الصلاة والصوم ومحافظة آناء الليل واليوم على موجبات الإثم واللوم وسدّ باب النوم والبُعد عن صحبة القوم. (كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ١/ ٩٠٠).

(٢) هو سهل بن علي الزاهد، من أهل مرو، صحبه النووي وأخذ التقشف منه، وكان أوحد زمانه في الورع. (كتاب الثقات لابن حبان ٨/ ٢٩٠).

(٣) عامر بن عبد قيس، من بني عامر بن عصر، وكان في الوفد الذي وفد على رسول الله ﷺ، وهو أخو عمرو بن عبد قيس الذي بعثه الأشجّ ليعلم علم رسول الله ﷺ (الطبقات الكبرى لابن سعد ٦/ ٨٥).

وروي عن بعض التابعين أنه قال: ألزمت نفسي الصمت بحصاة جعلتها في فمي. وكان إذا أكل أخرجها، وإذا فرغ وضعها في فيه، وكذلك إذا صلّى، فبقي في ذلك أربعين سنة، حتى لزمت نفسه الصمت فرمى بها.

وروي لنا عن رسول الله ﷺ أنه مرّ برجل يعبث في صلاته بلحيته فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»[١] وإنما يخشع القلب بما يتجلّى له من عظمة الله ـ عزّ وجل جلاله ـ ويهيج من النفس الخوف، والخشية والحياء منه، فيوجل القلب، فإذا خافت النفس، وخشيت فوجل القلب، واستحيا، سكنت الجوارح، وملك القلب جوارحه، ووقف بها على الحدود.

فإذا ترك الرياضة أحاطت بالقلب فورات الشهوات، وحلاوتها، وزينتها كالدخان، والغيم، فلم يستعين إشراق الأنوار، وأكمنت الأنوار بما فيها من السرور، والبهجة، والزينة، والحلاوة، واللذة.

فلم يتجلَّ في الصدر نور العظمة، والسلطان، وافتقد صاحبه الخوف، والخشية، والحياء. أن يعملوا على القلب، والنفس فأصابت النفس. فهمتها بما زين لها العدو، ومناها الغرور والأماني الكاذبة، يعدها سعة المغفرة ووقارة الرحمة، وفيض العفو، والتجاوز، ويحدّث نفسه بالتوبة ليتجرأ على الذنب.

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٢٨٩، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٣/ ٢٣، والمتقي الهندي في كنز العمال ٥٨٩١، والألباني في إرواء الغليل ٢/ ٩٢، وابن المبارك في الزهد ٢١٣، والقرطبي في تفسيره ١٢/ ١٠٣، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ١/ ١٥٠.

[الرياضة][1]

والأكياس بحثوا عن أصل هذه الأمور، ووجدوه ـ على ما ذكرنا ـ، فخلصوا إلى الرياضة، فقالوا: إنا لما وجدنا النفس تأشر[2]، وتبطر، وتستمر على الفرح، حتى تصير بحال من امتلائها بالفرح بالأشياء، كالسكران الذي لا يفيق من سكره.

فكل شيء نالت من الدنيا من حال أو عرض، أو حال مطلق لها أو غير مطلق فرحت، فذلك الفرح سم يجري في العروق حتى يستحل على الجسد، ويمتلىء القلب من حلاوة ذلك الفرح، ويصير أشراً بطراً، لا يذكر موتاً، ولا قيامة، ولا حساباً، ولا شيئاً من أهوال القيامة.

فذلك فرح يميت القلب، وتستمر النفس عليه، وتطيب، وتستوي الشهوة وتحتد، فهذا فرح مذموم، ذمّه الله عزّ وجل في تنزيه، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

ودلّ على الفرح المحمود، وندب إليه فقال عزّ وجل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

فإذا فرح العبد بما فضّله الله عزّ وجل على سائر العبيد، فمنّ عليه بالمعرفة والعقل، فاستنار قلبه، وطابت نفسه، فتعاونا على الشكر والحمد، فاستوجب المزيد، فقال عزّ وجل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، ففرحه بذلك يجب عليه المزيد، فهذا الفرح ترياق، وذلك الفرح سم.

فمَن شرب الترياق لم يضره السم.

وإنما صار سمًّا لأنه زينة، وفرح من جنس النار، وباب النار، وهو خط

(١) تقدم التعريف بالرياضة عند الحكماء، قبل قليل.

(٢) أشِرَ: بطر واستكبر، فهو أشِرٌ (المعجم الوجيز «أشر»).

إبليس، فجاء به الهوى مع العدو إلى هذا الآدمي بهذه الأشياء الدنياوية ليبتليه، ليفرح بهذا أو يستعمله معرضاً لاهياً.

أو يقبل على ربه عزّ وجل، وداره التي مهدت له. فقد قال عزّ وجل في تنزيله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ثم ذكر النساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام والحرث. ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فإذا فرح العبد بهذين المزيّن، الذي قد خلص حب تلك الزينة، وشهوتها إلى قلبه، وسماه الفرح. فإنه حسن المآب. فقد وصف الله عزّ وجل حسن المآب فقال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ﴾ [آل عمران: ١٥]، ثم بيَّن لمَن هي، فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [آل عمران: ١٥] فوصفها بما فيها، ثم بيَّن المتقين مَن هم، فقال عزّ وجل: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٧].

وقال عزّ وجل: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [المنافقين: ٩].

فمَن شغله الفرح بهذه الزينة، وملك قلبه حب هذه الشهوات، فقد ألهاه عن ذكر الله عزّ وجل، وفاتته التقوى، والصبر، والصدق، والقنوت، وحجزه عن الإنفاق، ونوّمه عن الاستغفار بالأسحار.

فالرائضون راضوا أنفسهم وأدّبوها بمنعها الشهوات التي أطلقت لهم، فلم يتمكنوها من تلك الشهوات إلا ما لا بد منه، كهيئة المضطر، حتى ذبلت النفس وطفئت حرارة تلك الشهوات، ثم زادوها منعاً حتى ذبلت، واسترضت.

فكلما منعوها شهوة أتاهم الله على منعها نوراً في القلب، فقوي القلب وضعفت النفس، وحيي القلب بالله جلّ ثناؤه، وماتت النفس عن الشهوات حتى امتلأ القلب من الأنوار، وخلت النفس من الشهوات فأشرق الصدر بتلك الأنوار فجلب على النفس خوفاً، وخشية، وحياء، واستولى على النفس وقهرها.

فالولايات على النفوس من القلوب بالإمرة التي أعطيت القلوب، بما فيها من المعرفة، فعلى حسب تأديب القلب النفس ينال القلب ولاية وسلطاناً.

فإذا أشرقت الأنوار من القلب في الصدر، وخلا الصدر من دخان الشهوات،

أبرز القلب سلطانه، فانقادت النفس، وسلست، وألقت بيدها سلماً وانكمن[١] العدو، واختشى[٢].

فمَن لم يرْض نفسه على ما وصفنا، وأعطاها مناها من الحلال، وانكمش في أعمال البر مستظهراً به. عجل له ثواب أعمال البر في العاجل نوراً، ففي الصدر ذلك النور، وليس له من القوة ما يمنع النفس من قضاء النهمة، فيمضي في الشهوات الحلال بلا نية، فيتعطل، ويبقى بلا حسنة ولا أجر، ومعه فساد الباطن، من حب الدنيا، والرغبة، والرهبة من المخلوقين، وخوف فوت الرزق، والخوف، والحسد، والحقد، وطلب العلو، وطلب العز، والجاه، وحب الرياسة، وحب الثناء والمدحة، والكبر، والفخر، والصلف والغضب، والحمية وسوء الظن، والبخل، والمن والأذى، والعجب والاتكال على العمل، ودواه كبيرة.

فكم من فعل سيء يظهر على أركان هذا، ومع هذه الدواهي، ففساد القلب، وخراب الصدر من الفرح بالدنيا، وأحوال النفس كلما ازدادت النفس فرحاً بهذه الأشياء؛ قويت، واحتدت، واشتد سلطانها، حتى تصير شرهة أشرة، بطرة مستبدة.

فإذا هويت شيئاً من الشهوات لم يملك القلب من أمرها شيئاً، ولم يتورع عن الحرام. وإن تورع عن الحرام لم يتنزّه عن الفضول، وإن تنزّه عن الفضول يتناول ما يحتاج إليه غفلة، وفقد النية والحسبة.

فإن تناول بنية وحسبة تناول على فقد ذكر المنة، وإن تناول على ذكر المنة، تناول على فقد رؤية المنة، واللطف، والبر. فهو أبداً في نقصان، في أي درجة كان؛ لأنه محجوب عن الله عزّ وجل، وإنما حجبه عن الله عزّ وجل، فرح بغير الله عزّ وجل.

---

(١) انكمن: كمن في المكان كموناً: أي توارى واستخفى في مكمن لا يفطن له (القاموس المحيط «كمن»).

(٢) اختشى: من الخوف والخشية. وخشاه: خافه (القاموس المحيط «خشي»).

[الفرح المحمود]

فالفرح المحمود على ضربين:

- فرح بالله عزّ وجل.
- وفرح بفضل الله ورحمته.

فالفرح بفضل الله وبرحمته ذكر النفس معه، والفرح بالله قد غاب ذكر النفس معه، والفرح بالله قد غاب ذكر النفس في ذكر مولاه.

فقال عزّ وجل في تنزيله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨].

وقال تعالى فيما روي: «قل للصديقين بي فافرحوا، وبذكري فتنعّموا»(١) وإنما يفرح بذكره عزّ وجل حين يرى منته عليه، وإنما يفرح بالله عزّ وجل مَن وصل إلى الله عزّ وجل، ومَن كان مرعاه بين يديه في ملك في ملكه؛ والواصلون إلى قرب الله عزّ وجل مرعاهم تحت العرش في القربة.

فالأكياس صاروا إلى الله عزّ وجل في هذا الطريق، وتوقّوا كل فرح فما فرحوا بشيء من الدنيا، أو بشيء من أعمال البر، وقالوا: إنما فساد قلوبنا من فرح النفس، لأن النفس إذا فرحت بشيء استولت على القلب، فلم ينفذ له شيء، فليس بنا التمييز بين الأعمال، لأنا لا نسير إلى الله تعالى بالأعمال، إنما نسير إليه بالقلوب نزاهة وطهارة.

فإنما يدنس القلب بأفراح النفس؛ وصار القلب محجوباً عن الله عزّ وجل، فكانوا يصونون قلوبهم عن الفرح بكل شيء دقّ أو جل، للضرر الذي يحدث عنه.

ومَن جهل هذا الباب توقّى الحرام، والشبهة، وانكمش في أعمال البر، فهو في الظاهر عار، وفي الباطن خراب؛ لأن النفس شاركت القلب في تدبير العمل، فإذا شاركت أخذت نصيبها، والهوى مقرون بالنفس، فلا يتخلص العمل لصاحبه أبداً؛ وإنما صار هذا هكذا.

---

(١) الحديث القدسي لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

لأن الله عزّ وجل أوله قلوب العباد إلى ألوهيته، فمَن صان قلبه عما تورد النفس عليه بقي قلبه مع الله عزّ وجل، في جميع الأحوال، فهو أبداً واله بالله عزّ وجل، والواله تعلق القلب به، ومَن لم يصن قلبه حتى أوردت النفس عليه أفراحها التي أورد عليها الهدى من باب النار، فقد صار وله قلبه إلى الهوى، فالصائن أوله قلبه الله بأفراحه وحبه، والتارك للصيانة أوله قلبه الهوى بأفراحه إلى باب النار ولجت تلك الزينة.

فالكيس لما أبصر هذا التدبير من الله تعالى أنه خلق الآدمي هكذا، وجعل فيه قلباً ونفساً، ثم جعل للقلوب محلاً في عظمته، حتى تسير القلوب إلى ذلك المحل فيكون مقامها هناك حتى إذا صار القلب إلى أن يستعمل جوارحه استعملها بذكره، معظِّماً لشأنه، حافظاً لحدوده.

حتى إذا سار القلب إلى أن يستعمل جوارحه استعملها بذكره، معظِّماً لشأنه، حافظاً لحدوده في جميع حركات جوارحه، مؤتمراً بأمره، متناهياً عن نهيه وإن دق، مراعياً لتدبيره، راضياً بحكمه.

وذلك كله بقوة ما يلاحظه من عظمته، وجلاله بين يديه، فيخشاه، ويتقيه، ويخافه، ويرجوه، ويستحي منه، ويهابه، ويعظمه.

وخلق بباب النار هذه الأفراح، والزينة من النار، وحفت النار بها(١).

ثم خلق الهوى وأصله من الشيطان، فمرّ بهذه الأفراح إلى نفس هذا الآدمي، حتى تستعمل هذه الأشياء الملائمة لها، اللينة في ذاتها، الناعمة لجسدها، بذلك الفرح.

فابتلى عباده بهذين الفرحين: فرح هناك بين يدي عظمته، ومحله القلوب، وفرح هاهنا يورده الهوى، فيزيله الهوى عن ذلك الوله الذي في ذلك المحل، فيرده من هنا إلى ما هناك.

فمَن التفت عن ذلك الوله إلى هذا الوله، حجب عن الله عزّ وجل، ونفي عن الوله، ورجع قلبه لما رجعت النفس إلى هذا الوله الذي أولهه الهوى فخاب وخسر.

(١) هو من الحديث الشريف: «حُفّت الجنة بالمكاره، وحُفّت النار بالشهوات»، وقد تقدم الحديث مع تخريجه.

وكذلك حذر الله عزّ وجل عباده فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩].

ثم قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

فلم يعب المال، والولد، وإنما عاب الوله بالمال، والولد، لأن الفرح والوله بالمال والوله يلهيه عن ذكر الله عزّ وجل، إذا لم يكن فيه فرح بفضل الله ورحمته. ودعاه الهوى إلى أن يفرح بالمال، لزينة الدنيا وبهجتها ولذتها، وبالفرح بالولد، ليلعب به ويلهو، ويتزين به، ويستظهر به، ويعتضد.

فصار المال، والولد فتنة لحبه إياهما فلم يحب المال من أجل أنه عون له على طاعة الله عزّ وجل، ولم يحب الولد من أجل أنه غصن من شجرته، خرج ليعبد مولاه، فيكون له جاهاً عند الله عز وجل بما يعبده ولده، ولكنه أحبهما للتكاثر، والتفاخر، والتعاضد، تزيناً بهما عند أهل الدنيا، كما قال الله عز وجل في تنزيله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

ثم قال عزّ وجل: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ [الكهف: ٤٦].

فمَن أحبها للزينة، وفرح بها، كان فرحه للدنيا، وكان وله قلبه إلى الهوى لا إلى الله عزّ وجل.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «ما تحت أديم السماء إله يُعبد من دون الله عزّ وجل، أبغض إلى الله عزّ وجل من الهوى»(١).

وقال: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٢].

فلما اتبعوا الشهوات، ولم يرضوا نفوسهم انقطعت القلوب عن محل الألوهية إلى الهوى، ففرحت بما أورد الهوى عليها عن دنياه، فضاعت الحدود، وذهبت العبودية، وخانوا الأمانة، فماتت قلوبهم عن الحياة بالحي القيوم.

وروي عن مالك بن دينار(٢) رحمه الله قال: مكتوب في بعض الكتاب: (إن

---

(١) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء ٦/١١٨، والسيوطي في اللآلىء المصنوعة ٢/١٧٣.

(٢) هو مالك بن دينار، مولى بني ناجية بن سامة بن لؤي بن غالب القرشي، كنيته أبو يحيى، من أهل البصرة، يروي عن أنس بن مالك، وكان من الزهّاد التابعين والأخيار الصالحين، كان يكتب المصاحف بالأجرة ويتقوت بأجرته، وكان يجانب الإباحات جهده ولا يأكل شيئاً من =

سرَّك أن تحيا وتبلغ علم اليقين، فاحتل في كل حين أن تغلب شهوات الدنيا، فإنه مَن يغلب شهوات الدنيا يفرق الشيطان من ظله) فهذه شهوات الدنيا إذا كانت مع الهوى.

فأما إذا تناولها وكان وله قلبه بين يدي الله تعالى في ملك العظمة، كان على سبيل نبي الله تعالى سليمان عليه السلام، ملك الدنيا شرقها وغربها، وقلبه أخشع القلوب للّه عزّ وجل، فلم يضره، فقال تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٣٩﴾ [ص: ٣٩].

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٤٠] فإنما ارتفع الحساب عنه، لأنه تناولها وكان وله قلبه إلى الله عزّ وجل.

فقد كشفنا عن هذا الأمر بأن قلنا: إن قلب العبد موقوف بين يدي الوله إلى محل العظمة، وبين الوله إلى الهوى، إلى محل باب النار.

ففي العظمة أفراح وزينة، وبباب النار أفراح وزينة، فتلك الأفراح بالقلب، وهذه الأفراح التي بباب النار في النفس، هو الهوى، وهو ريح من نفس النار، والذي يورد هذه الأفراح على القلب، هو نور المعرفة، ونور العقل، حتى يشخصا ببصر قلبك إلى نور العظمة، فيرجع عليك مع الأفراح؛ فالعباد موقوفون بين هاتين الحالتين.

= الطيبات، وكان من المتعبدة والمتقشفة الخشن، مات سنة ١٢٣هـ، ويقال: سنة ١٣٠هـ، ويقال: سنة ١٣١هـ، وقيل: سنة ١٢٧هـ، والصحيح أنه مات قبل الطاعون، وكان الطاعون سنة ١٣١هـ. وفي البداية والنهاية توفي سنة ١٢٨هـ. (انظر كتاب الثقات لابن حبان ٥/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤، والبداية والنهاية ١٠/ ٢٧، والطبقات الكبرى لابن سعد ٧/ ١٨٠).

[أهل المجاهدة]

فالإنسان منذ سقط من بطن أمه غذّي بالشهوات، وكلما نشأ نشأ معه فرح، وذلك فرح وجود اللذة والنعمة، وفرح الحياة بما فيها من الزينة والبهجة؛ فلما شبّ وعقل قامت عليه الحجة.

فاقتفى الوفاء بالإسلام، وهو الأمر والنهي فأراده قلباً، فاستعصت عليه النفس، فاحتاج إلى مجاهدتها، حتى يقيم أمر الله عزّ وجل، ويفي بالإسلام الذي قبله، وسيسعد غداً بجنته وجواره لأنه دعاه دعوة إلى الله عزّ وجل حين قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٢٥].

ودعاه إلى دار السلام حين قال: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] فصار أهل المجاهدة فرقتين:

فرقة حفظت الجوارح، وأدّت الفرائض، وسارت إلى الله عزّ وجل قلباً، فلم تعرج على شيء حتى وصلت إلى الله عزّ وجل.

وفرقة حفظت الجوارح، وأدت الفرائض بجهد، وتعب، في كد ومحافظة، وحراسة، ومع ذلك تخليط وتهافت في الخطايا، وأدناس لا يستطيع أن يسلم منها، بمنزلة راع أعطي سبعة أغنام ليرعاها في سبعة أودية في تلك الأودية سموم قاتلة، وجرف هارية، وسباع ضارية، فهو قائم على أكمة مراقباً لتلك الأغنام.

فإن رعت سماً بادرها بالبازهر[1]، والسمن، واللبن، حتى يردها إلى العافية.

(١) البازهر: كذا بالأصل، والصحيح: البادزهر الحيواني، وهو حجر خفيف هش، وأصل تكونه في الحيوان المعروف بالأيل. وإن هذا الحيوان يأكل الحيات، قد اعتاد ذلك غذاء له، فيحدث عن ذلك وجود هذا الحجر منه.

ومن منافع البادزهر: دفع السموم القاتلة وغير القاتلة، من حيوان كانت أو من نبات، وأنه ينفع من عض الهوام ونهشها ولدغها، وليس في جميع الأحجار ما يقوم مقامه في دفع السموم. وقيل معنى لفظ بادزهر: النافي للسم. فإذا شرب منه المسموم من ثلاث شعيرات إلى ١٢ =

وإن تردت في جرف فتكسّرت، عمد إلى ما تكسّر منها، فجبرها حتى تجبر.

وإن عرضت لها السباع زاد عنها، وطردها، وجدها فريسة استلبها من مخالبها وأنيابها، فداواها حتى تبرأ؛ فوكل العبد بجوارحه السبع ليحفظها، حتى لا تتعدّى الحدود.

فإنه إذا تعدّى الحدود، وعصى الله عزّ وجل، وخان الأمانة، وظلم نفسه، سقطت منزلته، فبعد عن الله عزّ وجل، فإذا بعد عنه تباعد عن الرحمة، وصار مرفوضاً مخذولاً، فأسره العدو، وذهب به إلى النار.

لأنه إذا أسره العدو ذهبت قوة القلب، واستولت النفس، فمرت في كل شهوة جزافاً، فلم تبالِ حلالاً ولا حراماً. فهلكت.

فهذا شأن العبد في حفظ الجوارح، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨﴾ [المؤمنين: ٨].

ثم قال الله عزّ وجل: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ۝٣٥﴾ [المعارج: ٣٢].

حدثنا صالح بن عبد الله، حدثنا جرير، عن ليث، عن ابن أبي نجيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، قال: (أول خلق الله من الإنسان فرجه، فقال: هذه أمانة خبأتها عندك، فلا ترسل منها شيئاً إلا بحقها).

فالفرج أمانة، والبصر أمانة، والسمع أمانة، واللسان أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، والبطن أمانة.

فإنما بدأ بالفرج، لأن جميع الأفراج تجتمع عند استعماله، وهو أقوى اللذات، وبه دخل النار أهله.

وقيل: يا رسول الله، ما يدخل الناس النار؟ قال: «الأجوفان: البطن والفرج»[1].

= شعيرة مسحوقة أو مسحولة أو محكوكة على المبرد بزيت الزيتون أو بالماء، أخرج السم من جسده بالعرق، وخلصه من الموت، وإذا سحق وذرّ على موضع النهشة جذب السم إلى خارج وأبطل فعله (صبح الأعشى للقلقشندي ٢/ ١٢٤ ـ ١٢٥).

(١) وروي الحديث بلفظ: «الأجوفان الفم والفرج»، أخرجه ابن ماجه حديث ٤٢٤٦، وأحمد في المسند ٢/ ٢٩١، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٢٤، والبغوي في شرح السنة ١٣/ ٨٠، والساعاتي في منحة المعبود ٢٠١٥، وابن كثير في تفسيره ٦/ ٣٤٧، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/ ٤٥٠، والسيوطي في الدر المنثور ١/ ٢٢١، ٢/ ٧٥، والبخاري في الأدب المفرد ٢٨٩، ٢٩٤، والهيثمي في موارد الظمآن ١٩٢٣، ٢٥٤٦.

وإنما خبأه عند عبده، يعني آدم عليه السلام، لأنه بدء الفرج، وهو سر الله عزّ وجل مقرون بسر القدر، لا ينكشف إلا لأهل الجنة فيها، فأمر بسر العودة لذلك، لأنه خلق مستور، خبأه الله عزّ وجل عندنا، وأمرنا بحفظه، وسماه سوءة، فحرص العدو على أن يهتك ذلك الستر، حتى يبدو لنا.

وقبل ذلك كان مستوراً عن آدم وحواء عليهما السلام، وإنما بدأ بالمعصية، قال الله عزّ وجل: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧].

فإنما صيّر كل جارحة من هذه السبع أمانة عندنا، لأن كل جارحة ذات شهوة، ومجمع الشهوات في النفس، فإذا استعمل هذه الشهوات بإذن الله تعالى وبلغ بها الحد الذي حدّه له، فهو مطلق له.

وإذا تعدّى إلى المحظور صار ملوماً، قال الله عزّ وجل: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

ثم أثنى عليهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝﴾ [المؤمنين: ٥ ـ ٦].

فأزال الملامة عن استعماله في نكاح، أو ملك يمين؛ ثم قال عزّ وجل: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝﴾ [المؤمنين: ٧] فذمّ الحد، وكذلك في كل جارحة على هذه الصفة.

فالراعي يحفظ هذه الأغنام حتى يصلح ما فسد منها، على ما وصفنا، فكذلك الذي وقف بمجاهدته على نفسه، يحفظ جوارحه على الحدود، في النظر، والكلام، والاستمتاع، والأخذ، والعطاء، والبطن، والفرج، فإذا غلب أو زل، أو نسي، أو غفل، عاد إلى مركز الطاعة بين يدي الله عزّ وجل بالاستغفار والتوبة؛ فهذا عبد في جهد الاستقامة، وباطنه غير مستقيم، لأن شهوات نفسه قائمة بين يديه، فهو يمنعها بجهد، ومتى ما غفل عنها زلّ وسقط.

[السير][1]

لطريق هذا العبد إلى دار السلام، ليس له وراء هذا مسلك وأما الذي راض نفسه وأدّبها، ومنعها اللذات والشهوات، حتى طهر قلبه، واستوجب القربة بطهارة قلبه، وآثر الفرح بالله على الفرح بما أورده الهوى على نفسه من أفراح الدنيا، فتح الله عزّ وجل له طريقاً إليه، فسار سيراً لم يلتفت إلى دار السلام.

لأنه لما أخذ في الرياضة أخذه بصدق، فلم يقف في الطريق على شيء مفروح به، ولو كان أسنى عمل من الأعمال، لأنه إذا توقّى الفرح بلذات الدنيا وشهواتها، أمدّ القلب النور، وهان عليه رفض الشهوات، حتى إذا انكمش في أعمال البر، فرح القلب بتلك الأعمال، ليقطع عن النفس فرحها بذلك العمل، لأنها إذا فرحت بعمل من أعمال البر، اطمأنت إلى ذلك العمل.

فإذا اطمأنت إلى شيء دون الله عزّ وجل، فقد ترك سيره إليه ووقف على ذلك العمل، فاقتضى منه صدق ذلك العمل، وهو أن تجد حلاوة حب الثناء والمدحة لذلك العمل.

---

(١) السير عند أهل التصوف نوعان: سيرٌ إلى الله، وسيرٌ في الله. فالسير إلى الله له نهاية، وأهل التصوف يقولون: السير إلى الله هو أن يسير السالك حتى يعرف الله، وإذ ذاك يتم السير، ثم يبتدىء السير في الله، وعليه فالسير إلى الله له غاية ونهاية، وأما السير في الله فلا نهاية له.
وأهل الوحدة يقولون: السير إلى الله هو أن يسير السالك إلى أن يدرك درجة اليقين بأن الوجود واحدٌ ليس أكثر، وليس ثمة وجود إلا لله، وهذا لا يحصل إلا بعد الفناء وفناء الفناء. والسير في الله عند أهل التصوف هو أن السالك بعد معرفته لربه يسير مدة حتى يدرك بأن جميع صفات الله وأسمائه وعلمه وحكمته كثيرة جداً، بل هي بلا نهاية، وما دام حياً فهو دائم في هذا العمل.
وأما لدى أهل الوحدة فهو أن السالك بعد إتمام سيره إلى الله يستمر في سيره مدة حتى يدرك جميع الحكم في جواهر الأشياء كما هي ويراها.
ويقول بعضهم: السير في الله غير ممكن، ذلك لأن العمر قليلٌ، بينما علم الله وحكمته لا تحصى، وبعضهم يقول: بل هو ممكن، وذلك أن البشر متفاوتون من حيث استعدادهم، فبعضهم لما كان قوياً فيمكنه أن يدرك جميعها (كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ١/٩٩٦).

فهو وإن أخفاه وستره علمت نفسه أن الناس يحسون بذلك منه، ويشعرون به فيأنس بعلم الناس، وملاحظة أعينهم إليه، فلا يصفو له عمل، ولا يقدر أن يخلص بأكثر من هذا، فيقبل منه إذا ردّ الذي عرض له من ذلك قبول الصادقين لا قبول الصدِّيقين.

فينبغي للمبتدىء في هذا الأمر أن يبدأ بالصوم، فيصوم شهرين متتابعين توبة من الله عزّ وجل.

وعد الله عزّ وجل في تنزيله أن شهرين توبة من الله عزّ وجل لعبده إذا تابعهما، ثم ينتقل من الصوم إلى الإفطار، فيطعم اليسير من الشيء يتجزأ به. فإن كان في اليوم مراراً كسرة كسرة، فهو أجود له من أن يملأ بطنه، فيصيرها أكله، وإنما ذلك محمود عند الأطباء.

فنقول: أكلة واحدة كي يستمر بها، وذلك لا يدخل في هذا الباب لأن صاحب هذا لا يأكل حتى يتخم، إنما نشير عليه بأن يأكل كسرة قوتاً، فيداوي نفسه على ذلك وبين الأيام دسماً قليلاً، لئلا تهيج عليه الرياح، وتضطرب العروق، ويقطع الإدام والفواكه عن نفسه.

وكذلك في الكسوة، يجتزىء بالدون وما لا بد منه.

وكذلك في سائر الأحوال التي للنفس فيها حظ من الفرح واللذة يقطعها عن نفسه، ومجالسة الإخوان، والنظر في الكتب. فهذا كله أفراح النفس وجماعها.

[صدق المريدين]

وفي الجملة: ينبغي أن يتفقّد كل حال، وكل أمر للنفس فيه فرح واستبشار، من نعمه، أو وجوده لذة، أو أنس بشيء، فيقطعه عنها. وأنه كلما هويت النفس شيئاً أعطاها فرحت به، فينبغي له أن يمنعها. ولو شربة من ماء بارد. تريد أن تشربها، فيمنعها في تلك الفورة التي تشوقت لوجود بردها ولذتها، حتى تسكن تلك الفورة، وينغص عليها.

ثم يسقيها بعد ذلك حتى يملأها غماً، ويوقرها هماً، لأن من شأنها إذا حبس عنها هذه الأفراح بهذه الأشياء، وبهذه الأحوال، فكأنه يصيرها في سجن، فيتقرب إلى الله عزّ وجل بغمها وهمها، فيعجل الله عزّ وجل له ثوابه نوراً على القلب، فيزداد القلب بذلك النور قوة على منع النفس شهواتها، وعلى أخذ سلطانها؛ ويستولي عليها. وهي تذل، وتذبل، والعدو يخسأ، ويتحيّر، ويبطل كيده ومكره.

حتى إذا انتهى إلى أعمال البر، فكل عمل يراها تفرح به أو تأنس به، يقطع عنها ذلك العمل، حتى إنه لو قرأ القرآن فرجع فيه وغنى، منعها ذلك، لأنها متى وجدت شيئاً مفروحاً به، أنست، واطمأنت إليه، ومدت القلب إلى ذلك الأنس، فمتى يصلب القلب إلى الأنس بالله عزّ وجل والطمأنينة إليه والوله إلى عظمته، وصفاء الحب له، فهذا صدق المريدين ربهم عزّ وجل، والسائرين بالصدق إليه، والطالبين له في منازل القربة.

فينبغي أن يتقي كل فرح للنفس فيه نصيب، حتى يصل إلى ربه تعالى، فإذا وصل إلى ربه عزّ وجل امتلأ قلبه به فرحاً وسروراً، ويقيناً، فكل شيء مدّ إليه يداً من دنيا أو آخرة لم يضره، لأنه منه يقبل.

فإذا قبل منه حمده عليه وشكره، وكانت جوارحه مستقيمة، حافظة للحدود، معتصمة بخوف الله عزّ وجل، ولسانه ذاكر، وبدنه شاكر صابر، لأنه امتلأ قلبه بالله تعالى فرحاً، فلم تجد أفراح الدنيا فيه مكاناً.

فإذا فرح بشيء في الدنيا، فإنما يفرح ببر الله تعالى له بذلك، وتقديره، وتدبيره، ولطفه. ولا يخون أمانته، ولا يكفر نعمه، ولا ينسَ ذكره، ولا يحدث عيباً.

فاستعمال جوارحه في ذلك الشيء بمنزلة رجل شرب ترياقاً، فامتلأت عروقه منه، فإن مدّ يده إلى حية، أو عقرب لم يضره سمها، لأنه لم يجد السم مسلكاً إلى عروقه. فإذا لم يجد الترياق وجد السم مسلكاً إلى عروقه، فجمد الدم الذي في العروق من ذلك السم فمات.

فكذلك أفراح الدنيا تجري في العروق مجرى الدم، فتشمل الجوارح كلها، فتأخذ القلب فتسبيه[1]، فإذا دخلت الأنوار القلب بما راض نفسه بهذه الرياضة التي ذكرنا؛ عجل له ثواب رياضته، فانشرح الصدر، وانفسح.

فصارت الآخرة له كالمعاينة، ولاحظ الملكوت بتلك العين: عين الفؤاد، في فسحة ذلك النور المشرق في الصدر، فرأى شأناً عجيباً من عظمة الله عزّ وجل وجلاله، ورأى من لطف الله عزّ وجل بالعبيد، وبره بهم، وإحسانه إليهم، ومننه عليهم.

فامتلأ القلب به فرحاً، وجرت الأفراح في العروق، حتى امتلأت.

فمتى تجد بعد ذلك أفراح الدنيا مسلكاً إلى عروقه، حتى يكون لذلك الفرح سلطان يأخذ القلب فيسبيه، فعندها يمد يده إلى ما أحلّ له من الطعام، والشراب، واللباس، والنكاح، والاحتواء إلى ما قدر له من دنياه، فيقبله من ربه عزّ وجل على تدبيره الذي دبّر له.

فإن أخذ أخذ بحق، وإن أمسك أمسك بحق، وإن أعطى أعطى بحق، وقلبه حر من رق النفس وفتنتها.

وذلك الشيء، وذلك العمل بمنزلة رجل له ملء بيت دنانير يملكها، وإن أعطاه رجل صرة فيها عشرة دنانير، لم يعمل في قلبه فرح تلك العطية عملاً يؤثر أثراً، ولا يستبين.

وإن كان عنده تلك الصرة، فسقطت منه حتى تويت[2]، لم يبدُ عليه ضرر

---

(١) تسبيه: أي تأسره.

(٢) توي المالُ توىً: ذهب ولا أمل في عودته، وتوي الإنسان: هلك، فهو توٍ. وأتوى ماله: أهلكه. وأتوى الله الشيء: أذهبه (المعجم الوجيز «توي»).

ذلك، ولا عمل على قلبه حزن ذلك، ولا هو فرح بما أصاب، ولا حزن على ما أتوى وذهب، لامتلاء قلبه بفرح تلك الدنانير، التي هي ملء بيت.

فكذلك مَن فرح قلبه بالله عزّ وجل، استغنى بالله عزّ وجل، فلا تملك قلبه بعد ذلك أفراح الدنيا، لأنه لا يستغني بالدنيا، إنما غناه بالله تعالى؛ وهذا تأويل قول رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس»[1].

فالنفس إذا استغنت، فغناها بغنى القلب المشرق نوره في صدره.

فإذا اطمأنت النفس بما أشرق فيها من النور بالله عزّ وجل، أشرق النور فيه إلى الله عزّ وجل، فقد رقّ عندها نوال الدنيا من أولها إلى آخرها، في جنب ما عاين القلب، وأورد من حياة على النفس.

فهذا شأن النفس إذا وصلت إلى ربها عزّ وجل بوصول القلب. فإنما قلنا إنه لا يدع لنفسه قراراً على شيء من أعمال البر.

فكلما فرحت النفس بشيء من الدنيا أو بالعمل من أعمال البر، قطع عنها ذلك الفرح حتى يغمها، حتى يطهر القلب من أفراح النفس.

فهناك يرحم، لأنه إذا وصل إلى هذه المرتبة، بقي بلا أنس، ولا فرح، قد قطع نفسه أفراح الدين والدنيا، فهو يحفظ جوارحه عن كل ما نهى الله عزّ وجل وعن كل شيء من الفضول.

فيقيم الفرائض والسنن، لا يزيد عليها، كفى بهذا شغلاً، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «أدِّ ما افترض الله عليك، تكن من أعبد الناس، واجتنب محارم الله عزّ وجل، تكن أورع الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً»[2].

فهذا المؤمن المستكمل المستحق لاسم الإيمان عند إقامة هذه الخصال الثلاثة، فكفى بهذا شغلاً.

فهذا عبد صدق الله عزّ وجل في العبودية. وأما سائر الناس من غير أهل هذه

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ١٥، ومسلم في الزكاة حديث ١٢٠، والترمذي في الزهد باب ٤٠، وابن ماجه في الزهد باب ٩، وأحمد في المسند ٢/٢٤٣، ٢٦١، ٣١٥، ٣٩٠، ٤٣٨، ٤٤٣، ٥٣٩، ٥٤٠.

(٢) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء ١/٧٥، وابن أبي حاتم الرازي في علل الحديث ١٨٢٤، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/٤٦٢، وابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/٣٢٢، والمتقي الهندي في كنز العمال ٤٣٢٦٦.

الصفة، فهم متخبطون بطّالون، يعبدون الله عزّ وجل على «الشايدجود»[١]، قد طابت أنفسهم ولذات أهوائهم.

وروي أن داود عليه السلام قال: يا رب، أمرتني أن أطهر بدني بالصوم والصلاة، فبمَ أطهر قلبي؟

قال: بالهموم، والغموم: يا داود.

فإنما تدنس القلب بالأفراح، أفراح النفس، فلا يطهر بمثل عمر نوح عليه السلام صوماً وصلاة، وإنما يطهر الصوم والصلاة أدناس الأركان بالمعصية، وإنما يطهر القلب ما يزيل عنه أدناس الفرح، وهو الهموم والغموم.

فلما منعت النفس شهواتها ذبلت، وطفىء تلظي شهواتها، وفوران دخان هواها، فزالت أدناس الفرح من القلب، بذهاب الفرح، وطهر بالأنوار التي ولجت القلب بمنزلة سحائب تحجبك بظلمتها، وبما فيها من الغبرة عن الشمس.

فلما انقشعت السحائب، وتبددت، أشرقت الشمس، فعندها يصلح لقرب الله عزّ وجل.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المائدة: ٣٥].

فالوسيلة والوصيلة بمعنى واحد. إلا أن الوصيلة أن يوصل الشيء بالشيء. فلما صار الأمر إلى ذكر الله عزّ وجل، أخرجوه مخرج القربة، فقيل وسيلة، بدَّل بالسين صاداً، وبالصاد سيناً.

فيكون له من الألفاظ أشرفها وأعلاها وأنزهها، فأمرهم بابتغاء الوسيلة إليه بالتقوى.

فجماع التقوى ههنا هو ما وصفنا، إلى أن يتقي الفرح في كل شيء، تجد النفس في ذلك الشيء فرحاً: من كلام، أو صيام، أو قيام، أو قعود، أو ذهاب، أو مشي، أو لباس، أو طعام، أو شراب، أو صاحب، أو أهل، أو ولد، إلا فيما لا بد منه كالمضطر، فإذا فعله على تلك الهيئة، فعله مع الاهتمام والاغتنام، أو مع الحزن، لأنك تجد ذلك الفعل لله عزّ وجل خالصاً، لا تأخذ النفس من ذلك الفعل لله حصتها.

فأنت تفعل ذلك الذي لا بد منه، فتكسر عليها فرحها، ونشاطها. لذلك التخليط الذي ترى في أمرك من قبلها، حتى يدوم عليها الغم والهم.

---

(١) الشايدجور: كلمة فارسية تعني: عبادة غير صحيحة.

[جهاد الصدِّيقين]

فجهاد الصدِّيقين في هذا أن يلقوا الفرح بشيء سواه، حتى أوصلهم إلى نفسه، بعد أن امتلأت صدورهم غموماً، وهموماً، فلما أوصلهم قربهم، ومَكّن لهم بين يديه، وملأهم فرحاً، فاشتاقوا إليه، فقرّبهم، فازدادوا شوقاً.

كلما زاد قربهم اشتد شوقهم، فازدادوا حتى عطشت قلوبهم، وامتلأت قلوبهم أحزاناً، حتى قطعوا الحياة، والعمر بالأحزان.

وروي في الخبر، كان رسول الله ﷺ: «دائم الأحزان والفكر»[1].

وروي عنه ﷺ أنه قال: «ما عُبد الله عزّ وجل بمثل طول الحزن»[2].

وحق لمثل هذا أن يحزن، فإنه وصل بقلبه إلى رب ماجد كريم، فرأى عظمته وجلاله، وعطفاً، وبراً، ونال منه حباً. فلم يشفِ الوصول إليه بتلك القربة. وذلك الفرح به، دون رؤيته في الجنة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن مَن أمن الناس بوائقه»[3]، والورع سيد العمل، مَن لم يكن له ورع يرده عن معصية الله عزّ وجل إذ خلا بها، لم يعبأ الله بسائر عمله شيئاً.

فذلك مخافة الله عزّ وجل في السر والعلانية، والاقتصاد في الفقر والغنى، والصدق عند الرضا والسخط.

إلا أن المؤمن حاكم على نفسه، يرضى للناس ما يرضى لنفسه؛ والمؤمن حسن

---

(١) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٢) الحديث لم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث التي بين يدي.

(٣) روي الحديث بلفظ: «لا يؤمن الذي لا يأمن جاره بوائقه». أخرجه بهذا اللفظ البخاري في الأدب باب ٢٩، ومسلم في الإيمان حديث ٧٣، والترمذي في القيامة باب ٦٠، وأحمد في المسند ١/ ٣٨٧، ٢/ ٢٨٨، ٣٣٦، ٣٧٣، ٣/ ١٥٤، ٤/ ٣١، ٦/ ٣٨٥.

الخلق، «وأحب الخلق إلى الله عزّ وجل أحسنهم خلقاً»[١]، وينال «بحسن خلقه درجة الصائم القائم»[٢] وهو راقد على فراشه.

لأنه رفع لقلبه علم، فهو يشهد مشاهد القيامة بقلبه، يعد نفسه ضعيفاً في بيته، وروحه عارية في بدنه، ليس بالمؤمن حقاً مَن لم يكن حملانه على نفسه، الناس منه في عناء، وهو من نفسه في عناء.

رحيم في طاعة الله عزّ وجل، بخيل على دينه، حي مطواع، وأول ما فات ابن آدم من دينه الحياء، خاشع القلب لله عزّ وجل، متواضع قد برىء من الكبر، قائم على قدميه، ينظر إلى الليل والنهار، يعلم أنهما في هدم عمره، لا يركن إلى الدنيا ركون الجاهل.

قال رسول الله ﷺ: «لا جرم أنه إذا خلف الدنيا خلف الهموم والأحزان، ولا حزن على المؤمن بعد الموت، بل فرحه وسروره مقيم بعد الموت»[٣].

حدثنا عبد الجبار بن العلاء بن يوسف بن عطية قال: سمعت ثابت البناني رحمه الله تعالى يذكر عن أنس رضي الله عنه، قال: بينما رسول الله ﷺ يمشي إذ استقبله رجل شاب من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: «كيف أصبحت يا حارثة؟» قال: أصبحت مؤمناً بالله عزّ وجل حقاً. قال: «انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقته» قال: يا رسول الله، عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، فكأني بعرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وإلى أهل النار كيف يتعادون فيها.

قال: «أبصرت فالزم، عبدٌ نوَّر الله الإيمان في قلبه».

فقال: يا رسول الله ادع الله لي بالشهادة؛ فدعا له رسول الله ﷺ، فنودي يوماً في الخيل، فكان أول فارس استشهد، وأول فارس ركب، فبلغ أمه، فجاءت إلى

---

(١) في الحديث: «إن من أحبكم إليّ أحسنكم أخلاقاً» أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب ٢٧، والمناقب باب ٢٣، والترمذي في البر باب ٧١، وأحمد في المسند ٤/١٩٣، ١٩٤.
وفي حديث آخر: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» أخرجه أبو داود في السنة باب ١٤، وأحمد في المسند ٢/٢٥٠، ٤٧٢، ٥٢٧، ٥/٨٩، ٩٩، ٦/٤٧، ٩٩.

(٢) روي الحديث بلفظ: «إن المرء ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم». أخرجه أبو داود في الأدب باب ٧، ومالك في حسن الخلق حديث ٦.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٢/٦٥.

رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، أخبرني عن ابني إن يك في الجنة لم أبكِ عليه، ولم أحزن، وإن يك غير ذلك بكيت عليه ما عشت في الدنيا.

فقال: «يا أم الحارث، إنها ليست جنة، ولكنها جنان؛ والحارث في الفردوس الأعلى» فرجعت وهي تضحك وتقول: بخ بخ لك يا حارثة[1].

قال أبو عبد الله رحمه الله تعالى: فإنما وصل العبد لله هذه المنزلة بتلك الأنوار. ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «هذا عبد نوَّر الله عزّ وجل الإيمان في قلبه».

حدثنا أبو محمد بن الحسن المكي، عن عبد العزيز بن أبي داود يرفعه إلى رسول الله ﷺ، بمثل حديث يوسف، إلا أنه قال: «لكأني أنظر إلى ربي عزّ وجل فوق عرشه يقضي بين خلقه»[2].

فقد أعلم أن الإيمان في القلب، ولا يستنير في الصدر، لإحاطة غيوم الشهوات، وزين الذنوب بالقلب في الصدر، حتى إذا تاب العبد صقل قلبه بالتوبة فإذا جاهدها، وراضها، حتى ينقطع دخان شهواتها، ونوران الهدي، جاءت الأنوار مدداً للإيمان الذي في القلب، فصار القلب ذا شعاع، وإشراق في الصدر.

فإذا أشرق في صدره، فذلك عبد نوَّر الله عزّ وجل الإيمان في قلبه، فلما نوَّره استنار في صدره، فصدرت الأمور إلى الجوارح من ذلك النور، ومع الخوف، والخشية، والحياء، فعملت الجوارح على الحدود، والمقدار الذي أمر، مع البهاء والزينة.

وروي عن رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا عاد نكت أخرى، فلا يزال ينكت حتى يسوء القلب كله، فإذا تاب ونزع صقل

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد في المسند ٢/ ٢٢٧، والقاضي عياض في الشفاء ٢/ ٦٤، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٩/ ٣٥٧، والتبريزي في مشكاة المصابيح ٥٢٥٢، وابن كثير في تفسيره ٣/ ٥٥٣، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٦٣، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ٣/ ١٧١، والشجري في الأمالي ١/ ٣٢، والطبراني في المعجم الكبير ٣/ ٣٠٢، والمتقي الهندي في كنز العمال ٣٦٩٨٨، ٣٦٩٩١.

(٢) الحديث لم أجده في كتب الحديث التي بين يدي.

قلبه، فإنما ينصقل بالأنوار حتى يتجلّى كالمرآة المجلية، فإذا صار كالمرآة تراءت له الدنيا على هيئتها، والآخرة على هيئتها والملكوت»[١].

فإذا لاحظ في الملكوت عظمة الله عزّ وجل جلاله، صارت الأنوار كلها نوراً واحداً، فامتلأ الصدر شعاعاً.

بمنزلة رجل نظر في المرآة، فأبصر صورة نفسه فيها، وأبصر ما بين يديه وما خلفه فيها. فإذا قابل بها عين الشمس، وقع الشعاع في البيت فأشرق البيت من تقابل النورين: نور عين الشمس ونور المرآة، فكذلك القلب إذا جلى فانجلى.

فلاحظ العظمة والجلال. تجلّت العظمة بين الحجاب لذلك القلب المجلي، لأنه طاهر من أدناس المعاصي، وأدناس الشهوات، وأدناس الهوى. والتقى النوران فامتلأ القلب شعاعاً، فهناك تموت النفس، ويخشع القلب.

حدثنا سفيان بن وكيع، وقتيبة بن سعيد، قالا: حدثنا عبد الوهاب الثقفي، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ.

«إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»[٢] ولكنه إذا تجلّى الله عزّ وجل لشيء من خلقه خشع له.

وكذلك لما تجلّى لطور سيناء صارت البقعة التي وقع التجلي عليها كالهباء المبثوث، وما في جوارها ساخت في الأرض، فهي تذهب في تلك البحار التي من وراء الدنيا إلى يوم القيامة فلا تستقر، وما جوارها أبعد منها، صارت ثماني فلق

---

(١) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٢٩، والترمذي حديث ٣٣٣٤، وأحمد في المسند ٢/٢٩٧، والسيوطي في جمع الجوامع ٥٦٩٥، وابن حجر في فتح الباري ٨/٦٩٦، والطبري في تفسيره ٣٠/٦٢، والهيثمي في موارد الظمآن ١٧٧١، ٢٤٤٨، والقرطبي في تفسيره ١٩/٢٥٩، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٠١٨٩، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/٤٦٩، ٤/٩٢، وابن الجوزي في زاد المسير ٩/٥٦، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/٢٢٩.

(٢) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الكسوف باب ١، ٦، ١٣، ١٥، وبدء الخلق باب ٤، ومسلم في الكسوف حديث ٦، ١٠، ١٧، ٢١، ٢٢، ٢٩، وأبو داود في الاستسقاء باب ٣، ٤، والنسائي في الكسوف باب ١، ٤، ٥، ١٠، ١٤، ١٦، ٢٠، ٢٣، ٢٤، وابن ماجه في الإقامة باب ١٥٢، والدارمي في الصلاة باب ١٨٧، وأحمد في المسند ٢/١١٨، ١٨٨، ٣/٣١٨، ٤/١٢٢، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٥٣، ٥/٣٧، ٤٢٨.

فطارت هرباً وفرقاً، حتى وقعت أربعة منها في حرم الله عزّ وجل، وأربعة في حرم الرسول ﷺ بالمدينة.

وخرّ موسى عليه الصلاة والسلام صعقاً فصارت الأرض كلها ذات بهجة وزينة، حتى ظهرت الكنوز على ظهر الأرض، وأبصرت العميان، وصحّ كل مريض، وبرىء كل زمن، وانفتحت الأرحام فحملت كل عقيم، وحلّ كل أجاج.

فاعلم في هذا الحديث: أن الشمس إنما ذهب ضوءها خشعة لله عزّ وجل، وخشوعها خروجها في سربالها الذي سربلت به من نور العرش، فتهافت الضوء، فكذلك النفس إذا أحست بالتجلي خشعت له عزّ وجل، أو خرجت من جميع شهواتها إلى الله عزّ وجل بما فيه من المعرفة والعقل فضرب، ثم قرب، ثم زيد نوراً، حتى كان له بين يديه، فهو يعبده كأنه يراه.

وهو قول جبريل عليه السلام «ما الإحسان»؟ قال: أن تعبد الله عزّ وجل كأنك تراه[1].

فحسن العبادة مع الترائي، فإذا كان محجوباً فإنه يعبد الله ولا يلتمس الحسن، والزينة في العبادة.

بمنزلة رجل دعاه الملك ليقطع ثوباً بين يديه ويخيطه، فلا يترك هذا الصانع من خفة اليد، وحسن الابتداء، ووجازة الفعل، وإحكام الخياطة وزينتها، إلا صنعه بين يديه، ويريد أن يتجلى بذلك عنده، فيكتسب به جاهاً عنده ومنزلة.

والآخر رجل دعاه الملك، وقال: اذهب بهذا الثوب فقطعه، وخطه، وأنفذه إلى فلان الراعي، فلما غاب عنه رفع عنه باله، فكيف قطعه، وخاطه جوزه، لأنه لم يشعر برؤية الملك، ولا ذكر العرض عليه، وإن ما به ارتفاع العمل، فيقول: قد عملت، وأخذ الأجرة، وإنما جرّأه على ذلك غفلته عن رؤية الملك، وعن العرض عليه..

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٣١، باب ٢، والإيمان باب ٣٧، ومسلم في الإيمان حديث ٥٧، وأبو داود في السنة باب ١٦، والترمذي في الإيمان باب ٤، وابن ماجه في المقدمة باب ٩، وأحمد في المسند ١/٢٧، ٥١، ٥٣، ٣١٩، ٢/١٠٧، ٤٢٦، ٤/١٢٩، ١٦٤.

(السير إلى الله)[1]

فعمال الله عزّ وجل ثلاثة أصناف:

عامل يعمل على الترائي، فلا يترك زينة، ولا مبادرة، ولا سرعة، ولا خفة يده، ولا طهارة، ولا تعظيماً، ولا وجازة، ولا مسابقة إلا جاء بها، يريد أن يتحلّى بذلك عند مولاه عزّ وجل.

وعامل ليس له هذا الترائي، وهو محجوب القلب بالشهوات، صادق في ابتغاء مرضاته، ذاكر للعرض عليه، فلا يتزين، ولا يبادر، ولا يعظم، ولا يسارع، ولا يوجز، ولا يسابق، ولكنه يعمل على الأحكام، وحفظ الحدود، وإتمام الأمر بالأركان.

وعامل لا يذكر رؤية ربه عزّ وجل أنه ناظر إليه في هذا العمل، ولا هو ذاكراً لعرض الأعمال يوم القيامة، فهو يعمل على الغفلة على التجويز، فإنما يعمل كل صنف منهم على نوره الذي في صدره.

فجملة ما وصفنا من أمر السير إلى الله تعالى أن يتقي فرح النفس، أن يتركها حتى تفرح بشيء من أحوالها، أو بتناولها من الدنيا وأعمال البر، كلما ظهر فرحها نغص عليها بالمنع لها، والانتقال عنه حتى يملأها غماً.

فيذوب الفرح الذي يتأدّى إلى القلب، ويظهر النور، ويظهر في ذلك النور الفرح بالله عزّ وجل.

لأن ذاك النور يؤدي به إلى صفات الله عزّ وجل، وإلى عظمته، وجلاله، وجماله، وكبريائه، وبهائه، وسؤدده، وكرمه وجوده، وبره، لطفه، ومننه، وإحسانه، ورحمته.

---

(١) تقدم قبل قليل التعريف بمصطلح «السير» عند الصوفية والحكماء، والفرق بين «السير إلى الله» وبين «السير في الله».

فمحال أن يعتقد القلب هذا الفرح حتى يدوم له ذلك، وتزول عنه أفراح النفس، ثم يصير في فرحه بالله عزّ وجل حزيناً، لأنه محبوس عنه برمق الحياة في دار الدنيا، مشتاق إلى ربه عزّ وجل، قد أنس به واشتاق إلى لقائه، واستوحش من الدنيا وأهلها.

وهمته ذكر الله، وعبودية شهوته، وموت راحته ويوم عيده، وتحقيق ما وصفناه من ضرر فرح النفس. أن الله عزّ وجل حرم المعازف، والخمر على لسان نبيه ﷺ[١]. وما نطق به الوحي في شأن الخمر، وذلك أن الله عزّ وجل لما خلق الفرح، وجعل له باباً.

فلما خلق الجنة، خرجت الأغراس من باب الرحمة، وخرج غرس العنب من باب الفرح، فذلك أول ما أكل آدم ﷺ حين دخلها العنب، فامتلأ فرحاً.

وروي أن رسول الله ﷺ سئل: وما أول ما يأكل أهل الجنة؟ قال: العنب[٢]، وأول ما أكل آدم العنب، فامتلأ فرحاً، ووضع من الفرح في تلك النار التي فيها الزينة بباب النار التي سميت شهوات.

فجعل ذلك الفرح حظ إبليس، حتى يأخذه فيضعه في الأشياء التي يغوي الآدميين بها، فلما أضلّ إبليس المشركين بذلك الفرح، دخل الأشجار وكل معبود من دون الله عزّ وجل، فصوّت منها بذلك الفرح.

فكل مَن يتبع صوته سبى ذلك الفرح قلبه، حتى يجيبه إلى الشرك، وإلى عبادته. فهو يرى أنه يعبد الشجرة والوثن، وإنما يعبد الطاغوت.

وإبليس طغى حتى بلغ غاية الطغيان فقيل: طاغوت. وذلك قول الله عزّ وجل: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون ٥٣] بأديانهم، وإنما يفرحون بالله عزّ وجل، ولكن غير المقبول منهم، وهم يحسبون أنهم مهتدون بذلك الفرح لأنهم تناولوه من إبليس، لا من هداية الله عزّ وجل ومعرفته.

وإنما وصل إلى غواية آدم ﷺ، بما استفرحوا بصوته من الفرح.

(١) في الحديث عن أبي مالك الأشعري سمع النبي ﷺ يقول: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف، ولينزلنّ أقوامٌ إلى جنب علم يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم لحاجة فيقولوا: ارجع إلينا غداً فيبيتهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة» أخرجه البخاري في الأشربة باب ٦، حديث ٥٥٩٠.

(٢) الحديث لم أجده في كتب الحديث التي بين يدي.

روي في الخبر: أنه لما دخل الجنة صوت من مزمار له حتى كادت حواء تطير من الفرح.

فقالت: ما هذا الصوت؟

قال: لسروري بكمالكما.

ثم قلب المزمار، فناح نياحة أخذ تقلبها، حتى امتلأت حواء خوفاً.

فقالت: ما هذا الصوت؟ فقال: حزناً عليكما أن تموتا، أو تخرجا منها.

فهناك دلها على شجرة الخلد، ولتخويف الزوال دلاهما بغرور، حتى ذاقا الشجرة، فلما هَمَّا صارا محجوبين بالهم، فلما ذاقا عريا من اللباس وانكشف العطاء عن الذنب، فوليا في الجنة هاربين. فبالفرح، خلص العدو إليه، حتى أكل من الشجرة فصرعه.

فحرّم الله عزّ وجل الخمر لما فيها من ذلك الفرح، لأن إبليس لما سرق العنب من سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، وافتقد نوح عليه السلام بينه وبين نبي الله ﷺ على الثلث والثلثين، فكل ما وجده نيًا أو مطبوخاً فيه بقية من حظه لم تأكله النار، خاض فيه يديه بفرحه الذي أعطى، حتى يتحول ذلك الفرح من يده إلى ذلك الشراب.

وإنما يزيد، ويغلي بحرارة يده الملعونة، لأنه خلق من النار، فإذا شربه الشارب، وقد تحول ذلك الفرح من يديه في ذلك الشراب، دبّ في هذا الشارب، وانكمن العقل، لتدنس يده رجاسته.

فشاربه يحتمل مرارته، وذهاب عقله، وتلف ماله، وألم جسده، والآفات التي تحل به، فإنما يحتمل ذلك كله من أجل ذلك الفرح الذي دبّ فيه حتى يصده عن ذكر الله عزّ وجل، وعن الصلاة.

ووجد سبيلاً إلى أن يحرس بينهم، ويغري بعضهم ببعض، فحرمه الله عزّ وجل لئلا يفرح بفرح هو حظ إبليس لعنه الله تعالى.

فكذلك أصوات المعازف والملاهي، تلك الأصوات ممزوجة بالفرح الذي بيده، فلا يلتذ المستمع إلا بما يمازجه من الفرح الذي بيد العدو، فإذا مازجه وسمع الآدمي هاج بالفرح منه، ودبّ في جميع جسده، وطرب حتى وثب ورقص كالقرد.

فحرّم الله عزّ وجل هذه المعازف، للفرح الممازج من حظ العدو فيها وأطلق

هذه الأشياء التي لا غنية بالآدمي عنها، مما هو له غذاء، أو معاش، ثم حذّره أن يلهيه ذلك الفرح حتى يأشر، ويبطر، ويتعدّى الحدود.

فالكيس حسم باب الفرح عن نفسه من كل حلال أو حرام، ومن جميع أعمال البر، مما يجد في النفس استرواحاً إليه، وبه فرحاً، حتى ملأهما غماً، حتى طهر قلبه، وتجلّت فيه أنوار العزيز، الماجد، الكريم، على ما ذكر بدياً.

وعريت الملائكة من الشهوات، والجوارح، والأجسام، والأجواف، والضرورات. فلا يحتاجون إلى طعام، ولا شراب، ولا كسوة، ولكن يستكنونه من الحر والبرد. فنجت من فتن الآدميين وضروراتهم، ومكايد العدو، وأظهر خلقهم من التدبير بقوله: ﴿كُن﴾[1] [البقرة: ١١٧].

وعاملهم من ملك الجبروت، ومقاومهم في ملك الجلال، وأظهر خلقنا من يده، وعاملنا من ملك الرأفة، والرحمة، ومقاومنا في ملك المحبة.

فالملائكة مجبورون على حال واحد، لا ينفكون ولا ينقلون عنها. والآدميون خدم بين يديه عزّ وجل، يتقلّبون من حال إلى حال، وكل أحوالهم خدمة.

وإنما صار هكذا لأن المعرفة من الملائكة على الأبصار، والمعرفة من الآدميين على القلوب، والقلب أمير على الجوارح.

فحركات الجوارح كلها من تقلُّب القلب بمشيئاته، ومشيئاته بمشيئات ربه عزّ وجل.

فأي جارحة حركها فإنما محركها قلبه، والقلب شاخص إلى الله عزّ وجل بولهه في تلك الحركة فتلك خدمة منه له؛ مأخوذة هذه اللفظة من خدمة الساق، لأن الآدمي إذا قام منتصباً، قام على خدمة ساقه، فهو بالقلب قائم بين يدي ربه عزّ وجل.

ومنه تتأدى الحركات إلى الجوارح، حتى تظهر على الجوارح. فقيامه ونهوضه إلى ربه عزّ وجل بتلك الحركة هو خدمته، وهو النية التي ينوي بها العبد في كل عمل.

---

(١) ورد لفظ ﴿كُن﴾ في القرآن الكريم ١١ مرة، وهي: [البقرة: ١١٧]، و[آل عمران: ٣]، و[آل عمران: ٥٩]، و[الأنعام: ٧٣]، و[الأعراف: ١٤٤]، و[الحجر: ٩٨]، و[النحل: ٤٠]، و[النحل: ٤٠]، و[مريم: ٣٥]، و[يس: ٨٢]، و[الزمر: ٦٦]، و[غافر: ٦٨].

[إنما الأعمال بالنيات][1]

والنية النهوض، يقال في اللغة: ناء ينوء، أي نهض ينهض. فالقلب يرتحل إلى الله عزّ وجل، حتى يصل إلى سدرة المنتهى إن كان له طريق، فإن حبس في الطريق فللتهمة احتبس، ولسوء الأدب منع، وانسدّ الطريق، فعلى أي حال كان، فقد نهض من مكانه إن وجد الطريق أو لم يجد.

ويقول للجارحة التي تعمل ذلك العمل تحركي بذلك العمل في حركاتك وأنفذي العمل على أثري، فإني واقف بالباب، أبتغي من ربي عزّ وجل مرضاته، بما ينفذ إليه على أثري فهذه النية.

ثم الناس في نياتهم على درجات، على تفاوت عقولهم، ولذلك قال رسول الله ﷺ، فيما يروى عنه، قال: «يعملون الناس الخير ويعطون أجورهم على قدر عقولهم»[2].

وروي عن الله عزّ وجل قال: يا موسى «إنما أجزي الناس على قدر عقولهم» قال له قائل: صف لنا شيئاً منه، كيف تتفاوت على قدر العقول؟ قال: مثل رجل دخل المسجد فوجد الصف الأول قد قام، فوقف في الصف الثاني، فقد سقط من درجة الصف الأول.

---

(١) روي حديث «إنما الأعمال بالنيات» بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في بدء الوحي باب ١، والإيمان باب ٤١، والإكراه في الترجمة، والنكاح باب ٥، والطلاق باب ١١، ومناقب الأنصار باب ٤٥، والعتق باب ٦، والأيمان باب ٢٣، والحيل باب ١، ومسلم في الإمارة حديث ١٥٥، وأبو داود في الطلاق باب ١١، والترمذي في فضائل الجهاد باب ١٦، والنسائي في الطهارة باب ٥٩، والطلاق باب ٢٤، والأيمان باب ١٩، وابن ماجه باب ٢٦، وأحمد في المسند ١/ ٢٥.

(٢) الحديث لم أجده في كتب الحديث التي بين يدي.

ودرجته أنه جاء عن رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته يصلُّون على الصف الأول»[(١)].

وجاء: أن الرحمة تنزل على الإمام مائة رحمة، فيأخذ مَن بحياله خلفه مثل ما للإمام، ثم الذي عن يمينه إلى منتهى خمسة وسبعين، ثم الذي عن يساره خمسون. فمَن دخل المسجد فوقف في الصف الثاني عن غفلة لم ينل عن صلاة الرب عزّ وجل شيئاً ولا من هذه الرحمة التي وصفت عن ابن عباس رضي الله عنه.

فمَن دخل فنوى: أني لو وجدت مكاناً لدخلت الصف الأول فبهذه النية استوى هو بالصف الأول، وله مثل أجورهم لما نوى، كأنه فيهم.

ثم إذا تمنى أن يدخل في الصف الأول ونوى ذلك، وامتنع وتحرَّج مخافة أن يؤذي مسلماً، أو يضيق عليه، يضاعف أجره على مَن في الصف الأول، بما اتقى أذى المسلم.

كذلك روي عن رسول الله ﷺ في شأن النية، وفي شأن التقوى؛ عن أبي كبشة الأنصاري رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أحدثكم حديثاً فاحفظوه: إنما للدنيا أربعة نفر:

عبد رزقه الله عزّ وجل علماً، ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فأجرهما سواء.

وعبد رزقه الله عزّ وجل مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يتخبّط في ماله بغير علم، فلا يتقي فيه رباً، ولا يصل فيه رحماً، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهو بأخبث المنازل.

---

(١) أخرجه الدارمي ١/٢٨٩، وأحمد في المسند ٤/٢٦٩، ٢٨٥، ٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠٤، ٥/٢٦٢، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/١٠٣، ١٠/٢٢٩، والطبراني في المعجم الكبير ٨/٢٠٥، والسيوطي في جمع الجوامع ٥٠٩٠، ٥٠٩٦، ٥١٠٤، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٠٥٥٣، ٢٠٥٨٧، ٢٠٦٤٠، وعبد الرزاق في المصنف ٢٤٤٩، ٤١٧٥، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق ٢/٢٥٥، ٣/٢٨٩، ١٠/٢٥١، والهيثمي في مجمع الزوائد ٢/٩٢، وابن أبي شيبة في المصنف ١/٣٧٨، والهيثمي في موارد الظمآن ٣٥٦، والسيوطي في الدر المنثور ٤/٩٧، ٦/٢١٣، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٥/٢٧، والمنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٣١٦، ٣١٨.

وعبد لم يرزقه الله عزّ وجل مالاً ولا علماً فهو يقول: لو أن لي مالاً عملت بعمل فلان[١].

حدثنا الفضل بن محمد، حدثنا زريق بن الورد الرقي، حدثنا أسلم بن سالم، عن ابن عبد الغفار بن ميمون عن عبد الملك الجزري، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن ترك الصلاة في الصف الأول مخافة أن يؤذي مسلماً أو يزاحم أحداً، فصلّى في الصف الثاني أو الثالث أضعف الله عزّ وجل أجره على مَن صلّى في الصف الأول»[٢].

فهذا بعقله نال زيادة الثواب على الصف الأول.

والآخر بغفلته وجهله سقط عن هذا الثواب.

فهذا تفسير «إنما أجزي الناس على قدر عقولهم»[٣].

ولذلك قال رسول الله ﷺ، فيما يروى عنه: «ولا يعجبنكم إسلام رجل حتى تعلموا ما عقدة عقله»[٤].

فالصادقون المخلطون: قلوبهم محجوبة بالشهوات. فنيتهم النهوض بالقلب. إذا نهضوا لم يجدوا منفذاً. فيقضون حيث بلغوا من الجو.

وأما الذين فتح لهم في الغيب، فإن قلوبهم تنهض إلى العلا حتى تبلغ مقامه. فهناك يبتغي مرضاة ربه تعالى. وحركات الجوارح عند فراغه من العمل تلحقه على أثره. فذلك النهوض هو نية.

والسابقون الذين وصلوا إلى الله عزّ وجل في مقامه، يترضّى ربه عزّ وجل ثم يلحقه العمل على الأثر، فالنيات متفاوتة، فهؤلاء خدم.

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي في الزهد باب ١٧، وأحمد في المسند ٤/ ٢٣١. والحديث كما رواه المؤلف هنا ناقص جملة وهي: «عبد رزقه الله عزّ وجل مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله عزّ وجل فيه حقه. قال: فهذا بأفضل المنازل...».

(٢) أخرجه بنحوه المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٣٢١، والهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٩٥، والمتقي الهندي في كنز العمال ٢٠٦٤٧، وابن القيسراني في تذكرة الموضوعات ٧٧٦، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٧/ ٢٥٠٧.

(٣) أخرجه الفتني في تذكرة الموضوعات ٣٠، بلفظ: «إنما أجازي العباد على قدر عقولهم».

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل في الضعفاء ١/ ٣٢٢، ٢/ ٨١٨، وابن القيسراني في تذكرة الموضوعات ١٠١١.

[الملائكة]

وأما الملائكة عليهم السلام، فإنما يعملون في مصافهم، ومقاومهم على الأبصار؛ وإنما خصّ جبريل عليه السلام من بين الملائكة، لأنه خادم ربه عزّ وجل، لأنه بين يديه على ساقه يخدمه باختلاف الأحوال، وأهل السموات في مصافهم، فالملائكة في أعلى الخلق مكاناً وهم سخرة للآدميين.

فأما إسرافيل عليه السلام فقابض الوحي، ومؤديه إلى جبريل عليه السلام وصاحب الصور، يدعوهم إلى الحشر وقبض الجزاء.

وأما جبريل عليه السلام فصاحب الرسالة.

وأما ميكائيل عليه السلام فقابض أرزاق الآدميين، والموكل بالقطر، والنبات والرياح لمعاش الآدميين.

وأما ملك الموت عليه السلام فقابض أرواحهم.

وأما حملة العرش فموكلون بالاستغفار للآدميين.

وأما الكروبيون، وأهل عليين فموكلون بالاستغفار والتضرع، والبكاء على أهل الذنوب من الآدميين.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لما أسري بي سمعت دوياً، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا بكاء الكروبيين على أهل الذنوب من أمتك»[1].

وأما أهل السموات فموكلون في صلاتهم بالاستغفار، ووفارة التقصير؛ وآخرون موكلون بالرياح، وآخرون موكلون بالسحاب، وآخرون موكلون بالشمس، وموكلون بالقمر، وموكلون بالنبات، وموكلون بالجبال، وموكلون بالبحار، وموكلون بالليل، والنهار، وموكلون بالحر، وموكلون بالبرد، وموكلون برزق الخلق صباح كل يوم، وموكلون بالثلج، وموكلون بأعمالهم: حفظة كتبة، وموكلون بالحراسة، وهم

---

(١) الحديث لم أجده في كتب الحديث التي بين يدي.

المعقبات؛ وموكلون بالهداية على القلوب، وموكلون بالهداية في الأسفار بالاستقامة، وموكلون بإتمام الكلام.

فإذا قال: الحمد لله. قال الملك: رب العالمين؛ وإذا قال العبد: سبحان الله، قالت الملائكة: وبحمده، ويكتب ذلك لصاحبها.

وموكلون بصلاة الآدميين في صفوفهم، فكلما زاد الرجل زاد معه ملك رحمة، وموكلون بحجهم، وفي مشاهدهم وموقفهم.

وموكلون بالزحف للنصر عند لقاء العدو؛ وموكلون بجنائزهم للتشييع. فهم أمام الجنازة.

وموكلون بليلة القدر، ونزول الروح، والتسليم على الآدميين.

وموكلون بالأعياد، وحمل الجوائز.

وموكلون بالتثبيت للآدميين في أعمالهم.

وموكلون بنزع الأرواح منهم، ورفعها إلى الله عزّ وجل، في مقام العرض.

هذا كله في الدنيا.

ثم إذا قامت القيامة فموكل بنفخ الصور، وموكل بالبشرى للموحدين، وموكل بحمل كسوة للآدميين.

وموكلون بالرحمة ليقسموها عليهم، وموكلون بجنبات النار، ينادون ربهم عزّ وجل، يسألونه السلامة.

وموكلون بوزن الأعمال، وعرض الدواوين.

وموكلون بحمل الأعمال من الخزائن إلى الموقف.

وموكلون بتشييعهم إلى الجنان من الموقف.

وموكلون في الجنان بالخزانة: قهارمة[1] وزوارة، وحملة هدايا من رب العالمين.

وجبريل عليه السلام موكل في الدنيا بأداء الوحي، وتبليغ الرسالة، ويوم القيامة بوزن الأعمال، وفي الجنة بالنداء من بطنان العرش، للزيارة إلى رب العالمين.

(١) قهارمة: جمع قهرمان، والقهرمان: مدبر البيت ومتولي شؤونه، فارسي معرّب.

فوجدنا الملائكة، كلهم مسخَّرون لنا في الدنيا، ويوم القيامة، وفي الجنان إلى الأبد. فآدم عليه السلام خليفة الله عزّ وجل في أرضه، والملائكة جند الخليفة. يعملون له ولولده، فاذكرنا في ولده في ضرب ولده عمرته الملائكة وما أفسد ولده أصلحته الملائكة، وما دنس ولده غسلته الملائكة وطهرته.

وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه قال: قالت الملائكة: يا ربنا منا المقربون، وما الصافون المسبحون، ومنا الكرام الكاتبون، ومنا ومنا، جعلت الدنيا لبني آدم يأكلون ويشربون، فاجعل لنا الآخرة. قال: لن أفعل. فعاودوه بمثل مقالتهم، فقال: لن أفعل. ثم عاودوه في الثالثة، فقال: لن أفعل، لن أجعل صالح ذرية مَن خلقت بيدي، كمَن قلت له: كن فكان، هم عبادي المقربون، والملائكة عباد مجبورون ومكرمون بالعبادة والطهارة، والآدميون خدم وتجار معاملون.

[المعرفة]

فالمعرفة رؤوس أموالهم، والحركات تجاراتهم، ومرضاة الله عزّ وجل أرباحهم.

قال الله عزّ وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [محمد: ١٩] تقلّبوا في مرضاته، وثووا في جناته، تحت عرشه في جواره، فأكرم الله تعالى هذا المؤمن بمعرفته، فأحرزه في ذمته، وحرم عرضه ودمه وماله، وعظم وحرمته، فأعلمهم بالله أعظمهم حرمة، وأقربهم وسيلة، وأكرمهم عليه.

فمثل العالم به كمثل رجل نظر إلى شخص رجل، حتى عرفه بالوجه، فهو ساكن القلب، حتى إذا عرفه بخصلة من خصال الشرف، فوجد قلبه قد تغيّر له إلى التعظيم والإجلال.

فإن كان قد جمعت هذه الخصال في رجل واحد، مما وصف الله عزّ وجل بها نفسه، من الجود والغنى، والرأفة والرحمة، والسماحة، والكرم، والمعرفة بالأمور، والقوة والتدبير، ومحاسن الأخلاق، عظم شأن الرجل عندك، حتى تهتم في ذكره وأوصافه.

فمَن كشف له الغطاء حتى عرف ربه عزّ وجل بأسمائه الحسنى، وبأمثاله العلا، كان أسبى لقلبه، وألهج لذكره.

وابن آدم مطبوع على سبعة وهي: الغفلة، والشك، والشرك، والرغبة، والرهبة، والشهوة، والغضب. فهذه سبعة أخلاق.

فإذا جاءه نور الهداية حتى عرف ربه عزّ وجل ووحّده، ذهبت الغفلة، وذهب الشك، والشرك. فهو يعلم ربه يقيناً، وينفي عنه الشرك، وزال الشك عنه.

ثم جاءت الشهوة، فأظلم الصدر بدخانها، وفورانها، ذهبت بضوء علمه، واستنارته، وتحيَّر في أمر ربه عزّ وجل كالشاك، وظهر شرك الأسباب، فكلما ازداد العبد معرفة وعلماً بربه عزّ وجل استنار قلبه، وصدره، وانتقص من الغفلة.

ومن هذه الخصال السبعة كلها، حتى يمتلىء صدره من عظمة الله عزّ وجل وجلاله، فعندما كشف الغطاء، وصار يقيناً، وزايله شرك الأسباب، وماتت الشهوة، وذهب الغضب، وذهبت الرغبة، والرهبة، فلا يرغب إلا الله عزّ وجل، ولا يرهب إلا منه، ولا يغضب إلا في ذات الله عزّ وجل. وللّه، ولا يشتغل بشهوة إلا بذكر الله عزّ وجل.

[رياضة النفس]

قال له قائل: صف لنا من رياضة النفس شيئاً. قال: إن النفس إذا اعتادت اللذة، والشهوة، والعمل بالهوى، أقبل على فطمها عن العادة في كل شيء، فكلما اشتدّ عليها فطم شيء فأقبل قبل ذلك الشيء حتى تعظمها عنه، حتى يصير قلبك حرًا، يألف مع الله عزّ وجل ببره ولطفه.

فقد رأيت البازي كيف يلقى في البيت، وتخاط عينه، حتى ينقطع عن الطيران، ويربى باللحم، ويرفق به، حتى يأنس بصاحبه ويألفه إلفاً، إذا دعاه فسمع صوته أجابه.

فكذلك النفس إنما تجيب ربها عزّ وجل فيما أمرها بعد فطامها من عادات الأمور التي اشتهت ولذّت، فإذا فطمها ألزمها الدعاء، وثناء الرب عزّ وجل، ومدائحه، ونجواه، حتى تأنس بذلك، وتألف الذكر، حتى ينكشف الغطاء بعد ذلك، فيألف ربه عزّ وجل.

وكذلك تجد الصبي قد ألف ثدي أمه. حتى لا يكاد يصبر عنه ساعة، فإذا فطمته اشتد على الصبي، وبكى، وقلق، فإذا دام الفطم نسيه وأقبل على الطعام، والشراب، فكلما وجد حلاوة الأطعمة والأشربة هجر الثدي، وعاف ذكر اللبن.

وكذلك تجد الدابة تؤخذ من الدواب السائمة، لتؤدب وتعود الركوب، ففي الابتداء تنفر عن اللجام، والسرج، فتشكل حتى تسرج وتلجم حتى تعتاد، وتعلم السير حتى تصير أذنها إلى العنان وقلبها إلى إشارات الراكب بذلك العنان.

فإذا بلغ بها القنطرة، وثبت وثبة لا تدعها تجور، فتعتاد ذلك، فليس في كل مكان يوجد قنطرة، فيعودها الوثب وسيرها في جلبة الصنّاعين، مثل الحدادين، والنجارين.

فإذا نفرت من تلك الأصوات أو تركت سيرها أدّبها حتى لا تنفر ولا تتحيّر، حتى تصير أديبة سيورة.

فكذلك الآدمي، يؤدب كما تؤدب هذه الطيور، والدواب بالفطم عن عاداتها، وكل شيء تجد النفس لذته في وقت تفرح بذلك الشيء، فإذا فرحت به فقد تدنس بذلك الفرح، فيصير غشاء عليه، حجاباً له من ذلك الفرح.

فكان أهل الصدق في هذه الطرق يلزمون هذا الباب الذي وصفت، فكل شيء تفرح نفوسهم به من وجود لذة ذلك الشيء كائناً ما كان، من طعام، أو شراب، أو لباس، أو أهل، أو ولد، أو أخ، أو مؤنس، أو أصحاب، أو أمكنة، أو عرض من عروض الدنيا، فكانوا يتقون الفرح لذلك، فيأخذون من ذلك الشيء الذي لا بد لهم منه على الضرورة، ثم يهربون من لذته خوفاً على النفس أن تفرح بذلك.

فإذا دام على ذلك صاحبه، فذلك تقوى الباطن.

وأما تقوى الظاهر: فهو حفظ الجوارح مع الخلق، والملائكة.

فإذا فعل ذلك فأدّى الفرائض لمواقيتها، وحدودها، واستعان على النفس برؤية المولى والمقابر، وأهل السجون، والمواضع التي فيها النيران العظيمة، من الأتون ومذاب جواهر الزجاج، فإن في ذلك قمعاً للنفس أورثه فعله بنفسه الغم، ومن الغم الهم، والأحزان.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «ما عبد الله عزّ وجل بمثل طول الأحزان»[1].

تمّ كتاب الرياضة بحمد الله ومنّه

وصلّى الله على محمد وآله وصحبه، وسلّم تسليماً كثيراً

---

(١) الحديث لم أجده في كتب الحديث التي بين يدي، وأخرج المتقي الهندي في كنز العمال ٦١٧٦، حديثاً بلفظ: «ما عبد الله بشيء أفضل من الزهد في الدنيا».

المراجع

- **كتب الأحاديث الصحاح، وكتب السنن الستة.**
ومسند الإمام أحمد بن حنبل.
والمعجم المفهرس لأحاديث الرسول ﷺ.
وصحيح الجامع الصغير، والكبير.
- **القواميس اللغوية: القاموس المحيط، المعجم الوسيط.**
- **تفسير الإمام القرطبي الجامع.**
وتفسير الإمام ابن كثير.
- **المؤلفات المنشورة للحكيم الترمذي مثل:**
ـ أدب النفس.
ـ إثبات العقل.
ـ بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب.
ـ ختم الأولياء.
ـ شفاء العلل.
ـ علم الأولياء.
ـ غرس العارفين.
ـ غور الأمور.
ـ منازل العباد من العبادة.
ـ نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول.
ـ الأمثال من القرآن والسنة.
ـ الحج وأسراره.
ـ تحصيل نظائر القرآن.
- **إغاثة اللهفان:** ابن القيم.
- **بصائر ذوي التمييز:** الفيروزآبادي.
- **معارج القبول:** الشيخ حافظ الحكمي.

فهرس الموضوعات

نحو القلوب

تأليف

الأستاذ أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري

المتوفى سنة ٤٦٥ هـ

وضع حواشيه

مرسي محمد علي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذا كتاب جديد للأستاذ القشيري في النحو واللغة فقد عرفنا عن أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري أنه صوفي ومؤلفاته جميعاً تدل على نهجه وضلوعه في علوم الفقه والدين والتصوف لكن لم نكن نعلم أنه ضالع في علوم كثيرة ومن جملتها النحو وذلك ما يدل على سعة علمه وبعد أفقه لا سيما إذا عرفنا تبحره في النحو ولا يفوت عالماً كبيراً كالقشيري مدى أهمية هذا العلم العربي في ضبط الكلام وفي تجميل المنطق.

وما جاء في كتابي نحو القلوب الكبير ونحو القلوب الصغير في التعبير عن المهم والمفيد في هذا المجال يغني القارىء عن مطالعة كتب كثيرة في النحو فقد عبَّر فيهما بأسلوب مختصر وبالغ الأهمية وبإيجاز قل أن نجده في كتب أخرى فقد بدأ بتعريف معنى كلمة النحو في اللغة بأنه القصد إلى صواب الكلام وختمها بتعريف الجموع وبقوله في نهاية الكتاب:

هذه فصول في نحو القلوب أنشأناها على وجه الإيجاز وبالله توفيق الخلق أجمعين وعليه التكلان والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

التعريف بالمؤلف

هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد النيسابوري القشيري الشافعي. صوفي. مفسر. فقيه ـ أصولي. محدث متكلم. واعظ، أديب، ناثر. ناظم.

ولد في ربيع الأول ٣٧٦ هـ وتوفي بنيسابور سنة ٤٦٥ هـ.

أشهر مؤلفاته: الرسالة القشيرية ـ لطائف الإشارات، التحبير في شرح أسماء الله الحسنى.

مصادر ترجمته: انظر معجم المؤلفين ج ٢/٢١٢. سير أعلام النبلاء ١١/١٩٨، وفيات الأعيان ١/٣٧٦.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

وبه ثقتي

الحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

قال الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ـ رحمه الله :

فصل [١]:

النحو[١] (في اللغة) هو القصد إلى صواب الكلام، يقال:

نحوت نحوه أي قصدت قصده (وهذا النوع في العربية يسمى نحواً لأنه القصد إلى صواب الكلام).

فنحو القلب القصد إلى حميد القول بالقلب وحميد القول مخاطبة الحق بلسان القلب، وينقسم ذلك إلى:

المناداة والمناجاة، فالمناداة صفة العابدين، والمناجاة نعت الواجدين، المناداة على الباب، والمناجاة على بساط القرب، فموقف العابد أبواب الخدمة، ومَرْبَع[٢] الواجد بساط القُربة.

---

(١) النحو: إعراب الكلام العربي، والنحو: القصد والطريق، يكون ظرفاً ويكون اسماً، نحاه ينحوه وينحاه نحواً وانتحاه، ونحو العربية منه. إنما هو انتحاء سَمْتِ كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكبير والإضافة والنسب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم، أو إن شذّ بعضهم عنها رُدّ به إليها وهو في الأصل مصدر شائع أي نحوت نحواً كقولك: قصدت قصداً، ثم خُص به انتحاء هذا القبيل من العلم. (لسان العرب ١٥/٣٠٩ ـ ٣١٠).

(٢) المَرْبَعُ: الموضع يقيم فيه الناس زمن الربيع على الخصوص (ج) مرابع.

فصل [٢]:

الكلام[١] اسم، وفعل، وحرف جاء لمعنى:

وفي نحو (القلوب): الاسم هو الله والفعل ما كان من الله، والحرف إما يختص بالاسم فيوجب له حكماً، أو يختص بالفعل فيقتضي له نسبة، وكما أن الحرف إذا دخل على اسم أوجب له إما حكم النصب أو الخفض أو غيره، فالوصف الذي هو العلم (مثلاً) يوجب لله حكم العالم.. وكذلك القدرة والحياة وسائر صفات الذات.

وكما أن من الحروف ما يوجب للفعل حكم النصب والجزم فوقوع أفعال الحق على أوصاف يوجب له نعت الاسم في الخلق.

فصل [٣]:

والاسم في نحو القلب ما كان مخبراً عنه في مخاطبة الحق، والفعل ما كان خبراً في مخاطبة العبد مع الحق.

والحروف رباطات تتم بها فوائد نطق القلب.

فصل [٤]:

والكلام المفيد ما كان اسماً واسماً، أو فعلاً واسماً وما عداه من الأقسام غير مفيد.

وفي نحو القلب مفيد وغير مفيد، فغير المفيد ما ليس لله، والمفيد ما يسمع من الحق أو يخاطب به الحق، وما سواه فلغو.

ويقال: المفيد إما دل على الذات، أو أشار إلى الصفات، أو كان عبارة عن المصنوعات.. هذا هو التقسيم الحاوي لجميع المعاني، لا يشذ عنه قسم من أقسام الخطاب الذي هو مفيد.

---

(١) الكلام عند النحاة: هو اللفظ المفيد فائدة يُحسن السكوت عليها. كقولنا: حضر زيد أو أكرمت ضيفي أو سعدٌ كريم أو استقِمْ، وأقلّ ما يتألف منه الكلام كلمتان، وقد تكونان اسمين أو فعلاً واسماً. (النحو والصرف ص ٣. د. عاصم بهجة البيطار).

الإعراب والبناء[1]

فصل [٥]:

الكلام ينقسم إلى معرب ومبني، والإعراب تغير آخر الكلمة لاختلاف العامل إما بحركة أو سكون أو حذف.

والبناء أن يلزم آخر اللفظة إما حركة أو سكون.

ونطق القلب إما بلفظ يراعى فيه توقيف الحق، أو قالة أَذِن فيها الحق تصريف الخَلْق، فالأول ما تسمع بقلبك فتقف عند ذلك بلا تكلف منك[2]، والثاني ما تناجي به مولاك على مقتضى ما تجد فيه من إشارة البسط، فأحدهما حال جمع، والثاني حال فرق.

فصل [٦]:

وجوه الإعراب أربعة: الرفع والنصب والخفض والجزم. وللقلوب هذه الأقسام، فرفع القلوب قد يكون بأن ترفع قلبك عن الدنيا وهو نعت الزهاد. وقد يكون بأن ترفع قلبك عن اتباع الشهوات والمنى ـ وهو نعت العُبّاد وأصحاب الأوراد والاجتهاد.

وقد يكون بأن ترفع قلبك عنك وتعتقد أنه لا يجيء منك شيء ـ وهذا نعت أصحاب الانكسار، وأرباب الخضوع والافتقار.

وقد يكون برفع القلب إلى الحق، وتصفيته عن شهود الخلق.

وقد يكون برفع يدك عن الحرام ثم برفع ما تضمره من إثبات الأنام ثم ترفع يدك إلى الله بسؤال الحاجات، ثم ترفع الحاجات عند إحكام المحبة[3] حتى تكون بالله لله، تمحو ما سوى الله.

---

(١) الإعراب في اللغة هو الإفصاح والإبانة والإظهار. يقال: أعرب عن رأيه إذا أفصح عنه وأظهره، والإعراب في اصطلاح النحاة هو أثرٌ ظاهر أو مقدّر يجلبه العامل في آخر الكلمات المعربة. أما البناء في اصطلاحهم فهو ثبوت آخر الكلمة على حالة واحدة على اختلاف العوامل المؤثرة فيها وموضعها من الإعراب. فكأنها البناء الثابت الذي لا يتغير على اختلاف عوامل الطبيعة (النحو والصرف ص ١٨. د. عاصم بهجة البيطار).

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٦٦.

(٣) انظر حديث القشيري عن المحبة في الرسالة القشيرية ص ٣١٧ ـ ٣٢٩.

وأما نصب القلوب فيكون بانتصاب البدن على بساط الوفاق، ثم بانتصاب القلب في محل الشهود بحسن الإطراق، ثم بانتصاب السر بوصف الانفراد.

والتنقي عن دقائق الافتراق.

وقد يكون العبد منصوباً لجريان حكم المقادير من غير أن يكون له اختيار، ولا له فيما هو به إيثار، أو منه فيه اشتغال، ولما يلقى به استثقال، ولما ينتظره استقبال، ولا لما يوعد به استعجال.

ليس لهؤلاء فيهم حظ ولا نصيب، ينصبهم الحق لحقه لا لحظهم فهم غياث الخلق، قائمون للحق بالحق.

وأما خفض القلوب فيكون باستشعار الخجل، واستدامة الوجل، ولزوم الذل وإيثار الخمول، وملازمة الخشوع، وإلقاء النفس في ذبائح الجهاد.

وقد يكون بخفض الجناح ـ لكل من طالبك بشيء ليس في الشرع له نُكْر ـ من غير رد ولا نزاع، ولا إبرام واستكراه. وهكذا العارف يستقل أعقاب الكافة مستحقراً لقَدْرِه مستقذراً لنفسه وفعله في عاجله وآجله.

وأما جزم القلوب، فالجزم القطع، ويكون بحذف العلائق، والسكون تحت جريان أحكام الحقيقة من غير إخلال بشيء ـ من آداب الشريعة.

ويكون جزم القلوب قطعها عن خطرات المُنَى، فإن الأماني والمعنى متضادة، فيقطع أعناق المطالبات والإرادات والاختيارات بسيوف اليأس، ثم يسكن بالله لله مع الله، فإن رجع إلى ابتغاء الرخص شهدت عليه الطريقة بالشرك والردة[١].

فصل [٧]:

وجوه البناء[٢] في النحو أربعة: الضمة والفتحة والكسرة والسكون. وللبواطن على لسان أهل الحقائق هذه الأقسام:

---

(١) هذه الكلمات أصل في مصنفات القشيري. قال في الرسالة ص ٣٦٤: لا بد للمريد من حفظ عهوده مع الله تعالى، فإن نقض العهد في طريق الإرادة كالردّة عن الدين لأهل الظاهر... وقال فيها أيضاً ص ٣٨٠: فإن الرخص في الشريعة للمستضعفين... ولهذا قيل: إذا انحط الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله تعالى.

(٢) للتوسع انظر النحو والصرف ص ٢٠ ـ ٢٨ للدكتور عاصم بهجة البيطار.

فضم الأسرار صونها عن الأغيار، وفتحة القلوب تنقيتها من الكروب بمفاتحات الغيوب، وكسرة القلوب سجودها عند بغتة الشهود ومفاجآت الالتقاء، وسكون البواطن سكونها إلى الحق بنعت الاستئناس على وصف الدوام في عموم الأحوال.

وفي المعرب والمبني إشارات أخر:

فالمعرب يتغير آخره باختلاف العوامل.

والمبني ما يكون على صيغة واحدةٍ. . . . وكذلك صفات العبد منها ما يقبل التغير والتأثير ـ وهي ما كان مجموعاً بتصرفه وتكلفه، ومنها ما لا يقبل التحويل والتبديل وهي موضوعات الحق ـ سبحانه ـ فيه من أخلاقه، ويكون ذلك بحسب ما سبق له من أرزاقه، وكذلك من أحكامه فيما وجب له من سابق أقسامه، فمن شقي نفذ بالرد قضاؤه، ولم ينفعه كدّه وعناؤه، ومن سعد مضى بالقبول حكمه، فلم يخرجه عن محكوم السعادة جُرمه.

ومن أقسام البناء ما يبنى على الكسر، فصاحبه أبداً مكسور لا ينجبر كسره، ولا يتغير فقره، ولا يزول ضره، ولا يصلح قط أمره، صباحه بلاء، ورواحه شقاء، وجده منكوس، وحظه مبخوس، ونجمه منحوس، وقصده معكوس. . إن ورد نهراً غيض ماؤه، وإن وجد دُرًّا قرب فقده.

ومن ذلك ما بني على الفتح فصاحبه لا يزول نعيمه، ولا يبرح مقيمه، يسطح من البعد نسيمه، ويسعد على القرب نديمه، ولا يتكدر بغيبته مشربه، ولا يتغير ـ بطول حجبته مذهبه.

الصدر له فارغ وإن أبطأ في حضوره، والشمس ظلام عند تلألىء نُورِه، والبدر يخجل لفجاءة[1] ظهوره.

ومن ذلك ما بني على الضم، فصاحبه مرفوع عنه كلفة الاختيار، غير معاتب على

---

(١) الفجأة من الاصطلاحات الصوفية التي استخدمها القشيري في مولفاته ونخص الرسالة القشيرية. قال: البواده ما يفجأ قلبك من الغيب على سبيل الوهلة... ومنهم من يكون فوق ما يفجؤه حالاً وقوة. (الرسالة القشيرية ص ٧٨). وقال: «لما ورد عليهن من شهود يوسف عليه السلام بشكل مفاجىء» ص ٧٩. وقال: «وقد يرد بسطه فجأة...» (الرسالة ص ٥٩). وقال: «الخشوع قشعريرة ترد على القلب بغتة عند مفاجأة كشف الحقيقة (الرسالة ص ١٤٦).

اختلاف الأطوار، ولا متلون الحكم عند تفاوت الآثار، فالعتب عنه مرفوع، والعذر عنه موضوع، فلا له عقل فيلزمه تكليف، ولا له أو منه ـ في الشرع ـ فعل فيتوجه عليه تضيف. . . هؤلاء باسر القدرة، مشكل بين الورى حديثهم، ملتبس على الكافة أمرهم.

ومن ذلك ما بني على السكون فصاحبه على مكانه موقوف، وعن قصده مصروف، لا يغني عنه جِدّه، ولا يسعده جَده، يطول به الزمان، وتتوالى عليه الحدثان، وهو من أول حاله إلى نهاية مآله لا يجاوز سورة الإخلاص، ولا يخرج إلى صورة الانتقاص.

كذلك الأحكام: مختلفة الأقسام، متفاوتة الأدوار.

فصل [٨]:

الأسماء على ضربين: اسم معرفة، واسم نكرة.

وفي الإشارة: الخلق كذلك، فمن صاحب معرفة، ومن صاحب نكرة، ولكل حدٌّ ووصف. فالاسم النكرة يصير معرفة ـ ولا رتبة فوق أن صار معرفة. كذلك لا رتبة للعبد فوق العرفان. . قال المشايخ: ما رجع مَنْ رجع إلا من الطريق، أما من وصل فما رجع.

فصل [٩]:

الاسم المفرد إذا ثنّيته ألحقته ألفاً في حال الرفع، وياء في حالي النصب والجر ونوناً بعد الألف والياء.

ونون التثنية مكسورة، وهي تسقط عند الإضافة.

والإشاة من ذلك: أن الواحد لا تثنية له من لفظ الواحد، و(الاثنان) لا واحد له من لفظه، فلا يقال من (الواحد) واحدان، ولا من (اثنين) اثن، وهذا محال في التقدير.

كذلك الذي هو (واحد) في الحقيقة يستحيل أن تزول عنه وحدانيته ـ تقديراً ووجوداً. والذي يصح أن يكون (اثنين) فمن المحال أن يصير فرداً لا ثاني له ـ تقديراً. قال الله تعالى.

﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكَّرون﴾ [الذاريات: ٤٩] الآية.

فصل [١٠]:

وما دام الواحد من الأسماء واحداً فهو بصفته في حروفه، فإذا انضم إليه غيره حتى يصير اثنين وقع في التغير:

فمرة مرفوعاً بالألف، ومرة منصوباً أو مخفوضاً بالياء ـ كذلك العبد ما دام بقلبه مفرِّداً مجرِّداً فهو في أسمى نعوته، فإذا حصلت علاقة المواصلات وقع في التلوين فمرة ومرة.

ونون التثنية أبداً مكسورة، كذلك صاحب العلاقات مكسور الجناح يطرح نفسه كل مطرح.

ونون التثنية تسقط عند الإضافة، لأنها بدل من التنوين في الواحد، والتنوين والإضافة أمارتان للمعرفة فلا يجتمعان كذلك صفة العارف إذا غلبت عليه صفة من صفات المعرفة فالصفة التي في مقابلتها تكون مغمورة مستورة ـ فإذا كان الغالب عليه القبض فبسطه مستور، وإذا كان الغالب عليه البسط فقبضه مغمور، وإذا كان الغالب عليه الأنس فالهيبة كالمقابل، وإذا كان غالبه الهيبة فالأنس[١] كالزائل... وعلى هذا النحو جميع أوصافه.

فصل [١١]:

الجمع على ضربين: جمع سلامة وجمع تكسير.

وفي الإشارة كذلك: ما يسميه القوم الجمع على قسمين: جمع سلم صاحبه، وهو ما حفظ عليه الشرع في وقت غلبات الجمع.

وجمع صاحبه مكسور الصحة، وهو ما لا يحفظ على مدَّعيه آداب العلم.

والفرق بين جمع أقسام النحو في الخطاب وأقسام جمع نحو القلوب: أن كلا الجمعين في الخطاب ـ في مسائل النحو ـ صحيح، أما في نحو القلوب فأحدهما صواب والثاني غير صواب.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ٥٨ ـ ٦١ (القبض والبسط، الهيبة والأنس).

الإشارة: جمع السلامة ما يسلم فيه لفظ الواحد كذلك جمع سلامة هذا الطريق ما يسلم العقل فيه من الشبهة، والفعل من البدعة، والنفس من الشهوة، والقلب من الغفلة والغيبة، والسِّر من الحجبة.

وجمع التكسير ما تكسر فيه لفظ الواحد: كذلك المدخول من جمع القوم ما يزول عن عقود الحقيقة، ويزيغ عن حدود الشريعة.

فصل [١٢]:

إذا جمعت اسماً مذكراً جمع السلامة فيما يعقل ألحقت بآخره واواً في حال الرفع، وياء في حالي النصب والخفض، ونوناً بعد الواو أو الياء - وهي مفتوحة، وتسقط عند الإضافة.

والإشارة: إذا صار الاسم إلى حال الجمع وقع في كل هذا التلوين والتغيير.. فمرة ومرة، من زيادة ونقصان، وتبديل وتحويل - كذلك صاحب الجمع زال حكمه عن نفسه، فمرة يظهره الحق في وديان التقريب، ومرة ينصبه في نعت الإبعاد.. وهو محو عن الاختيار **﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود﴾** [الكهف: ١٨].

خرج الشبلي[١] يوماً في زي رثّ فقيل له في ذلك فقال:

فيوماً ترانا في الحرير نجرّه ... ويوماً ترانا في الحديد عوابسا
ويوماً ترانا والثريد نلتّه ... ويوماً ترانا نأكل الخبز يابساً[٢]

وكان النبيّ ﷺ يقول مرة:

(١) هو دلف بن جحدر الشبلي (٢٤٧ - ٣٣٤ هـ ٨٦١ - ٩٤٦ م) ناسك كان في مبدأ أمره والياً في دنباوند، وولي الحجابة للموفق العباسي، ثم ترك الولاية وعكف على العبادة فاشتهر بالصلاح له شعر جيد سلك به مسالك المتصوفة. أصله من خراسان ونسبته إلى قرية «شبلة» ومولده بسر من رأى، ووفاته ببغداد، اشتهر بكنيته، واختلف في اسمه ونسبه الأعلام ٢/٣٤١، ووفيات الأعيان ١/١٨٠، والنجوم الزاهرة ٣/٢٨٩، وحلية ١٠/٣٦٦، وتاريخ بغداد ١٤/٣٨٩، والرسالة القشيرية ص ٤١٩ - ٤٢٠.

(٢) الثريد: الخبز يُفتّ ويُبلّ بالمرق. لتّ الطحين ونحوه: بلّه بالماء أو السمن وخلطه به.

«إني لست كأحدكم، إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[1] وقال مرة: «أنا ابن امرأة تأكل القديد»[2].

ومرة حكم لعشرة بالجنة، ومرة يقول: «إنه ليغان على قلبي»[3].

وجمع السلامة له قياس، وجمع التكسير كثير الفنون مختلف القياس شكل المباني.

كذلك من حُفِظ بوصف العلم فهو ـ مقاماً ـ سيدُ وقته وإمام زمانه. والذي هو في هذه الطريقة جمع تكسير فصاحب بلاء لا يهتدي إليه أحد، مردود عند من لا نصيب له من الطريقة، لكنه مستور في الحقيقة أمره، وهو في عين الشريف. ومن هو على جانب من هذا الحديث يظنه من أهل التكليف.

ألــوانهــا شتــى الفنــون وإنمــا تُسقــى بمــاء واحــد مــن منهــل

فصاحب هذه الحال مشكل الحال، ملتبس الوقت، لا تهجم على محله جوامع القياس، ولا تُشرف على غوامض نعته ثواقب التقدير.

فصل [١٣]:

من الأسماء أسماء مخصوصة أفردت عن أشكالها بجعل رفعها بالواو، ونصبها بالألف، وكسرها بالباء، وهي ستة أسماء: أبوك وأخوك وهنوك وحموك وفوك وذو مال.

الإشارة: كذلك من الناس من خُص عن أمثاله، وأفرد بالأحكام من بين أضرابه وأشكاله:

---

(١) أخرجه الحميدي في (المسند ١٠٠٩) والترمذي في (السنن ٧٧٨)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/٢٣، ٢٣٧، ٣/٣٠، ٢٠٢، ٢١٨، ٢٧٦، ٥/٣٦٤)، وابن الجارود في (المنتقى ٣٩٤).

(٢) أخرجه ابن ماجة (أطعمة ٣٠).

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح (الذكر ٤١)، وأبو داود في (السنن ١٥١٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/٢١١، ٢٦٠) والبيهقي في (السنن الكبرى ٧/٥٢)، والطبراني في (المعجم الكبير ١/٢٨٠) والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٢٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥/٥٧، ٨/٢٩٩، ٥١٧، ٩/٥٩، ٦٢٨)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٢/٤٣)، (بغوي ٦/١٨٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/٦٣)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/١٠١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٠٧).

قال أحدهم: ليس كل بَـشَر بِشْراً [١].

أي باين حكمه حكم من سواه، وانفرد عنهم في معناه.

فصل [١٤]:

الأفعال على ضربين: لازم[٢] ومتعدٍّ[٣].

وفي الإشارة كذلك: أفعال العبد على قسمين: لازم ومتعد، فاللازم ما تكون بركاته على صاحبه مقصورة، والمتعدي ما تتعدى خيراته إلى الغير.

والفعل المتعدي على أقسام: منها ما يتعدَّى إلى مفعول واحد[٤]، ومنها ما يتعدَّى إلى مفعولين[٥]، ومنها ما يتعدَّى إلى ثلاثة مفاعيل[٦].

والإشارة: كذلك العبد قد تتعدى بركاته إلى عالم من الناس حتى قال الشيوخ: لو أن ولياً من أولياء الله اجتاز ببلد لغفر الله لأهل هذا البلد.

وفي الأثر: لو أنَّ محزوناً بكى في أُمّة لرحم الله تلك وفي الأثر: لو أنَّ محزوناً بكى في أمة لرحم الله تلك الأمة ببكائه.

---

(١) هو بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمٰن المروزي (١٥٠ ـ ٢٢٧ هـ = ٧٦٧ ـ ٨٤١ م) أبو نصر المعروف بالحافي، من كبار الصالحين. له في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث من أهل «مرو» سكن بغداد وتوفي بها. الأعلام ٢/ ٥٤، ووفيات الأعيان ١/ ٩٠، وتاريخ بغداد ٧/ ٦٧ ـ ٨٠، والشعراني ١/ ٦٢، وحلية ٨/ ٣٣٦، والرسالة القشيرية ص ٤٠٤ ـ ٤٠٦.

(٢) اللازم: وهو ما لا ينصب المفعول به أي لا يتعدى أثره فاعله، ولا يتجاوزه إلى المفعول به ويسمى أيضاً: الفعل القاصر، وغير الواقع، وغير المجاوز نحو: جاء زيد، وفاز المجد، ونام الطفل (النحو والصرف ص ٣٤٠ د. عاصم بهجة البيطار).

(٣) المتعدي: وهو ما يتعدى أثره فاعله ويتجاوزه إلى المفعول به نحو: فتح العربُ العالم بأخلاقهم قبل سيوفهم، ويسمى أيضاً الفعل الواقع أو الفعل المجاوز. (النحو والصرف ص ٣٤٠).

(٤) المتعدي إلى مفعول واحد وهو كثير نحو: كتب، وأخذ، وأكرم (النحو والصرف ص ٣٤٠).

(٥) المتعدي إلى مفعولين وهو ضربان: آ ـ ما ينصب مفعولين ليس أصلهما مبتدأ وخبراً نحو: أعطى، سأل، منح، كسا، ألبس. نقول: كسوتك ثوباً وألبستك حلية. ب ـ ما ينصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر نحو: ظن، خال (النحو والصرف ص ٣٤٠ ـ ٣٤١).

(٦) المتعدي إلى ثلاثة مفاعيل وهو: أرى، أعلم، أنبأ، نبَّأ، أخبر، خبّر، حدّث. (النحو والصرف ص ٣٤١).

فصل [١٥]:

خمسة أمثلة من الأفعال رفعها بالنون، ونصبها وجزمها بسقوط النون وهي: يفعلان وتفعلان ويفعلون وتفعلون وأنت تفعلين.

وفي الإشارة كذلك: من الأفعال ما يكون مخصوصاً، ولا تقبل إلا بزيادة تقترن بها، فيؤتى بها بشرط قِران ينضم إليها: كرمي الجمار[١] مثلاً: لا يكون طاعة إلا في الحج، كما أنَّ السعي بين الصفا والمروة[٢] لا يكون عبادة إلا في الحج والعمرة[٣]، فمن قُيِّض لأجل شيخ من الشيوخ أو عارف أو ولي لنفع له منه حتى إذا مضى وقت ذلك الشيخ فلا قَدْر لذلك الشخص.

فصل [١٦]:

الأفعال على أقسام: صحيح ومعتل ومضاعف[٤].

الإشارة: كذلك أفعال المكلفين على أقسام: صحيح ومعتل، وكما أن الصحيح من الأفعال ما سلم من حروف العلة فالصحيح من أفعال العباد ما سلم من صنوف العلة. وحروف العلة ثلاثة:

الواو والألف والياء، وصنوف العلة الرياء والإعجاب والمساكنة.

وبعض حروف العلة أضعف وبعضها أقوى، كذلك فإن بعض صنوف علل الأفعال ألطف وبعضها أبْدَى.

ومن الأفعال ما يكون حرف العلة في أوله وهو المثال، كذلك، من أفعال العبد ما كانت العلة في أوله وهو ألا يكون الدخول فيه على حد الإخلاص.

---

(١) الجمار: (ج) الجمرة: الحصاة الصغيرة يُرمى بها في مِنًى أيام الحج.

(٢) الصَّفا: اسم أحد جبلي المسعى من مشاعر الحج بمكة. المروة: إحدى شعائر الحج يسعى بينها الحاج وبين الصَّفا.

(٣) العُمرة: أفعال مخصوصة تسمى بالحج الأصغر، وأفعالها أربعة: الإحرام، والطواف والسعي بين الصَّفا والمروة، والحَلْق. وليس لها وقت معيّن، ولا وقوف بعرفة (ج) عُمَرٌ.

(٤) انظر حديث الدكتور عاصم بهجة البيطار عن هذا الفصل في كتابه النحو والصرف ص ٣٢٤ ـ ٣٢٦.

ومنها ما هو أجوف. . . وهو الذي حشوه حرف علة، كذلك من أفعال العبد ما هو أجوف وهو الذي داخله زلة كالغيبة والغفلة.

ومنها ما هو ناقص وهو الذي يكون في آخره حرف علة، كذلك من أفعال العبد ما هو ناقص وهو الذي تعقبه آفة، فإن قبول القرب موقوف على وفاء العواقب.

ومن الأفعال ما هو لفيف، وهو الذي اجتمع فيه حرفان من حروف العلة إما مقترنين أو مفترقين، كذلك من الأفعال ما تتوالى عليه الآفات، فصاحبه يعتريه الرياء ويلحقه الإعجاب.

ومن الأفعال ما هو مُضَعَّف، وذلك ما اجتمع فيه حرفان متجانسان فأدغم أحدهما في الآخر، كذلك من أفعال العبد ما ضوعف لصاحب أجره، أو ضوعف عليه وزره وذلك ما اجتمع فيه حقّ الحق وحق الخلق فضوعف حكمه في الأجر والوْزِر.

فصل [١٧]:

الإدغام الإخفاء، فالحرفان في التقدير موجودان وإن كانا على اللسان بوصف الانفراد. وفي هذا إشارة إلى ما يقوله القوم في وصف الجمع وجمع الجمع.

والمدغم من الحروف قد يكون له حال بروز في بعض أحوال التصريف. . كذلك صاحب الجمع له رجوع وردّ في بعض الأحايين إلى عين الفرق.

ومن أقسام الفعل المهموزُ. . والهمزة مدّ في الحلْق. . كذلك قد يصعد بعض الأفعال زيادة على ما يصعد غيره من حيث القبول.

فصل [١٨]:

الاسم المبتدأ شرطه أن يكون مصدراً للإخبار عنه، مجرداً عن العوامل اللفظية.

وإنما يكون الاسم مبتدأ إذا لم يعمل فيه عامل ظاهر، فإذا سلم من العوامل الظاهرة سلم له صدر الخطاب. فكذلك من سلم من تأثير الأطماع فيه، ولم تعمل فيه الشهوات والإرادات سلم له التقدم، ومن أَسَرتْهُ المنى والمطالبات تسفّل في الأعقاب، ووقع في صف النعال.

فصل [١٩]:

العوامل على قسمين: لفظي[١] ومعنوي[٢]، فالاسم المبتدأ: العامل فيه معنى الابتداء، وهو غير لفظي، وإنما هو وقوعه مبتدأ.

وكذلك في الإشارة: العامل في العبد نوعان: ظاهر يهتدي إليه كل أحد، ومستور لا يظهر إلا بعد مدة، قال الجنيد[٣] رحمه الله: «من أراد أن يضع سرّاً عند أحد فليضعه عند رويم[٤]، فإنه صحبنا كذا وكذا سنة وفي قلبه حبّ إلينا ولم نبصره فيه».

فصل [٢٠]:

ومن فصول باب الابتداء أنه خص المبتدأ[٥] بالرفع ـ وهو أقوى الحركات ـ لمصادفته حل لجام[٦] التكلم كذلك في الإشارة من تخلص من تأثير المطالبات فيه، وتحرر من

---

(١) العامل اللفظي: وهو العامل المذكور في الكلام كالفعل الذي يرفع الفاعل وينصب المفعول به والمشتقات العاملة عمل أفعالها، والحروف المختصة كحروف الجر المختصة بالأسماء، والنواصب والجوازم المختصة بالمضارع، والأحرف المشبهة بالفعل المختصة بالجملة الاسمية وقد يكون العامل اللفظي غير مذكور في اللفظ ولكنه بمثابة المذكور لدلالة الكلام عليه كـ«رب» التي تحذف فتدل عليها الواو أو الفاء و(أن) الناصبة للمضارع التي تضمر فتدل عليها لام التعليل أو لام الجمود أو غيرهما، وهذه العوامل اللفظية ليست في مرتبة واحدة من القوة والقدرة على العمل بل هي في ذلك على تفاوت جعل النحاة يقسمونها قسمين هما: العوامل الأصلية والعوامل الفرعية. (النحو والصرف للدكتور عاصم البيطار ص ١٨ ـ ١٩).

(٢) العامل المعنوي: وهو عامل قدّره النحاة تقديراً وافترضوه افتراضاً لأنهم جعلوا لكل حركة سبباً أو عاملاً أتى بها، ثم وجدوا أن المتبدأ مرفوع فقالوا: العامل فيه هو الابتداء، وهو التجرد من العوامل اللفظية ووجدوا كذلك أن الفعل المضارع يرفع إذا تجرد عن الناصب والجازم فجعلوا هذا التجرد من العوامل اللفظية هو العامل في المضارع (النحو والصرف ص ١٩).

(٣) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز (توفي ٢٩٧ هـ = ٩١٠ م) أبو القاسم، صوفي، من العلماء بالدين. مولده ومنشأه ووفاته ببغداد. له «رسائل» و«دواء الأرواح» وغير ذلك الأعلام ٢/١٤١، ووفيات الأعيان ١/١١٧، وحلية ١٠/٢٥٥، وتاريخ بغداد ٧/٢٤١، وطبقات السبكي ٢/٢٨ ـ ٣٧، والرسالة القشيرية ص ٤٣٠ ـ ٤٣١.

(٤) هو رويم بن أحمد بن يزيد بن رويم (توفي ٣٣٠ هـ = ٩٤١ م) صوفي شهير، من جلة مشايخ بغداد، الأعلام ٣/٣٧، وطبقات الصوفية ١٨٠، والرسالة القشيرية ص ٣٩٠.

(٥) انظر حديث الدكتور عاصم بهجة البيطار عن المبتدأ في كتابه النحو والصرف ص ٥٤ ـ ٦٠.

(٦) اللّجام: أداة من حديد توضع في فم الدابة، يشدّها الراكب بسير أو حبل يمكّنه من السيطرة عليها (ج) لجم وألجمة.

الإرادات قوي في حاله فخُصّ بأقوى الأثقال وحُمِّل أثقل الأمور لأنه يحمله بقوة، فأقواهم حالاً يخص بأثقل الأمور، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ [المزمل: ٥].

وقال ﷺ: «الناس كإبل هائمة لا تكاد تجد فيها راحلة»(١).

وكان الشبلي يقول: «أشْعُرُ أني مأخوذ بجرائم الخَلْق».

فصل [٢١]:

لا بد للمبتدأ من الخبر. . والخبر(٢) ما تتم به فائدة الخطاب، فإذا حصل الابتداء فلا بد مما تتم به فائدة الخطاب وإلا كان لغواً.

كذلك الابتداء في العرفان، فلا بد مما تتم به الفائدة وهو استدامته إلى حال الانتهاء، فإذا حصل الابتداء بالطاعات فلا بد من تمامها: قال ﷺ: «الأمور بخواتيمها»(٣).

وكذلك على لسان الجمع: إذا حصل منه (سبحانه) ابتداء القسمة بالرحمة فلا بُدّ في الانتهاء والمآل من المنة والنعمة، وإذا سبق منه الابتداء بالولاء فلا محالة ينعم بحفظه في الانتهاء، ولذلك قيل:

إنَّ الكـــريـــم إذا حبـــاك بـــودِّه ستـــر القبيـــح وأظهـــر الإحســـانـــا
وكـــذا الملـــول إذا أراد قطيعـــة ستـــر المليـــح وقـــال كـــان وكـــانـــا

فصل [٢٢]:

خبر المبتدأ على أقسام وبالكل تحصل فائدة الخطاب.

كذلك لو سلكت للحق طريقاً، أو ابتدأت بأمر فلا تنصرف ما لم تتم ذلك سواء كان سلوكك سبيل العبادة، أو طريق الإرادة، أو طريق العلم، أو طريق الزهد فإن قدر الأمور بالاستقامة فيها، فإذا ابتدأت بأمر فاعلم أنه لا تتم الفائدة إلا بإتمامه.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٣٩٩٠)، وابن عبد البر في (تجريد التمهيد ٩/ ٢١٢).
(٢) انظر حديث الدكتور عاصم بهجة البيطار عن الخبر في كتابه (النحو والصرف ص ٦١ ـ ٦٨).
(٣) أخرجه البخاري (قدر ٥)، (رقاق ٣٣)، والترمذي (قدر ٤)، وأحمد بن حنبل ٥/ ٣٣٥.

تجـرَّد إلـى الـدنيـا فـإنـك إنمـا سقطت إلـى الـدنيـا وأنـت مجـرَّد

فصل [٢٣]:

خبر المبتدأ قد يكون مثل المبتدأ كقولك: زيدٌ منطلقٌ. ويكون جملة إما فعلاً وفاعلاً، أو شرطاً وجزاءً، أو ظرفاً. . وبجميع ذلك تحصل فائدة الخطاب.

كذلك إذا ابتدأت بأمر فيكون تمامه بتجردك لذلك الأمر كما ابتدأت به، فتكون اليوم فيه كما كنت بالأمس. وقد لا تحصل الفائدة إلا بجملة من الأفعال والصفات تزيد على حالتك الأولى، إذ لو لم تضفها إلى ما سبق منك بالأمس لا تحصل الفائدة.

فصل [٢٤]:

الفاعل[١] مرفوع، وقيل: علة الرفع مشابهته للمبتدأ، وقيل: لقوة حاله خُصّ بأقوى الحركات.

وقيل: للفرق بينه وبين المفعول ـ والرفع أقوى الحركات.

وفي الإشارة: استحقاق الرفعة والعلو للحق سبحانه وتعالى، لأنه الفاعل على الحقيقة، وليس لغيره قدرة على الاختراع. ولأن الابتداء في الأمور منه فهو الأول السابق، واستحقاق الرفعة والعظمة له.

فصل [٢٥]:

المفعول منصوب، والنصب أخف من الرفع، والمفعول أنقص رتبة من الفاعل فخُصّ بما هو الأخف من الحركات.

كذلك الخلق هم المفعولون، فلهم حالة العجز والنقص، لأنهم في أسر القدرة وتصريف القبضة.

وقيل:

فـاصبـر لِمُـرّ العنـاء فقـد خُلقْـت مَمـرّ القضـاء

(١) الفاعل: اسم يدلّ على من أسند إليه فعل أو ما يشبهه إيجاباً أو سلباً، أو يدل على من قام به الفعل نحو: فازَ المجاهدُ، ما خاب من استشارَ، مات المريضُ. (النحو والصرف ص ٣٦).

فصل [٢٦]:

المفعول على أقسام: مفعول مطلق[(١)]، ومفعول به[(٢)]، ومفعول له[(٣)]، ومفعول فيه[(٤)]، ومفعول معه[(٥)].

كذلك المفعولات على أقسام: فالجمادات مفعولات على الإطلاق، والحيوانات مفعول بها، تجري عليها أحكامه ـ سبحانه ـ في النفع والضر. والمكلفون مفعول لهم، خلق لأجلهم الجنة والنار. وأحوال المكلفين مفعول فيها لأنهم يعملون بالمعاصي والطاعات فيها. والبلاء مفعول معه لأن بني آدم خلقوا والبلاء والعناء معهم. قال الله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ [البلد: ٤].

ويصح أنه يقال: الأرزاق مفعول معه لأنها لازمة لأوليائه، فلا يكون لله وَلِي إلا وهو مُكْفي الشغل، قال الله تعالى:

﴿وهو يتولّى الصَّالحين﴾ [الأعراف: ١٩٦].

فصل [٢٧]:

ما لم يسم فاعله مرفوع، لأنه لم يذكر فاعله فأقيم المفعول مقام الفاعل، فأعرب إعراب الفاعل، لأن الفعل لا بد له من فاعل، فيقال: ضُرِبَ زَيدٌ.

الإشارة: إذا التبس إثبات الصانع على أهل الغفلة نسبوا الأفعال إلى المفعولين

---

(١) المفعول المطلق: هو اسم يؤكد عامله نحو: سِرتُ سيراً، أو يبيّن نوعه أو عدده زيادة على التوكيد نحو: درست دراسة الطامحين، وزرت مواضع الآثار زورات ثلاثاً (النحو والصرف ص ١٤١).

(٢) المفعول به: اسم دل على ما وقع عليه الفعل سلباً أو إيجاباً نحو: قطف المُجدّ ثمرة عمله، ولم ينل المهملُ إلا الخُسران، ولم تتغير له صورة الفعل. (النحو والصرف ص ١١٩).

(٣) المفعول له: مصدر يبين علة ما قبله نحو: زرتك رغبةً في علمك. ويسمى المفعول لأجله أو من أجله. (النحو والصرف ص ١٣٦).

(٤) المفعول فيه: اسم دل على زمان المفعل أو مكانه وتضمن معنى «في» الظرفية باطّراد نحو: قرأت ساعة وذهبت مكانك. وقد سماه البصريون «ظرفاً» وسماه الكوفيون «محلاً» لأنه محل للأفعال. (النحو والصرف ص ١٤٩).

(٥) المفعول معه: اسم، فضلة، تالٍ لواو بمعنى مع، تأتي بعد جملة ذات فعل أو ما فيه معنى الفعل وحروفه نحو: جئت وشروق الشمس.

فتوهموا للمفعول استحقاق رتبة الفاعل فيضيفون الكائنات إليهم، لأن العلم ـ بأن هذه الحوادث لا بد لها من محدث على الجملة ـ ضرورة.

فإذا لم يثبتوا الصانع توهموا الفعل من المفعولين، فواحد أقام الطبع مقام الفاعل في التوهم، وآخر النجم، وآخر الفلك، وآخر الجَد والبخْت، وآخر الدولة وآخر الدهر وآخر زيداً، وآخر عمروا. . .

فكما أنَّ إعراب الرفع للذي لم يسم فاعله ليس بحقيقة كذلك تُوهِّم أن الحادثان من المفعولات والمفعولين لا حقيقة له.

فصل [٢٨]:

المضاف[١] إليه له الخفض، تقول: دار زيدٍ.

والإشارة: أنَّ الخفض أضعف الحركات: عندما كان الاسم مفرداً، كان له أقوى الحركات، فلما جاءت الإضافة صارت له أضعف الحركات. كذلك العبد ما دام مجرداً فله أقوى الحالات، فإذا جاءت العلاقة صار إلى أضعف الحالات.

فصل [٢٩]:

كان وصار[٢]. . . إلى آخر هذه الأفعال ألفاظ ترفع الأسماء وتنصب الأخبار، تقول: كان زيدٌ قائماً. . .

فهذه مُشَبَّهة بأفعال وليست بأفعال محضة.

والإشارة: أنها لما ضارعت الأفعال أجريت مجرى الأفعال الحقيقية، فكما أن الفاعل رفع والمفعول به نصب فكذلك اسم كان مرفوع وخبره منصوب، ولكن يُنادى عليها

---

(١) الإضافة: هي نسبة بين اسمين يتعرف فيها الأول أو يتخصص بالثاني نحو: قلم زيد جديد، وزارنا رجلُ وفاءٍ، فـ«قلم» تعرّف بإضافته إلى «زيد» المعرفة و«رجل» تخصص وزال شيوعه وعمومه بإضافته إلى «وفاء» النكرة. (النحو والصرف ص ٢١٧).

(٢) هذه الأفعال ثلاثة عشر فعلاً: (كان ـ ظل ـ بات ـ أصبح ـ أضحى ـ أمسى ـ صار ـ ليس ـ ما زال ـ ما برح ـ ما فتىء ـ ما انفك ـ ما دام) وكلها تدخل على الجملة الاسمية فترفع المبتدأ تشبيهاً بالفاعل وتنصب الخبر تشبيهاً بالمفعول. (النحو والصرف ص ٧٠ د. عاصم البيطار).

أنها ليست بأفعال محضة، فكذلك من تشبه بقوم يجري مجراهم، ويحكم له ـ في الظاهر ـ بحكمهم ولكن يُنادى عليه بأنه متشبِّه بهم وليس منهم حقاً.

قال الشاعر في هذا المعنى:

إذا انسكبت دموع في خدود　　تبيَّن من بكى ممن تباكى

فصل [٣٠][1]:

الحروف التي تنصب الأسماء وترفع الأخبار معدودة محصورة وهي: إنَّ وأنَّ وكأنَّ ولكنَّ وليتَ ولعلَّ.

وعمل هذه الحروف ـ في الحقيقة ـ في الأسماء دون الأخبار، لأن الأخبار باقية على ما كانت عليه، وإنما تساهل النحويون فيه، فهذه الحروف أشبهت كان وأخواتها التي تعمل في الاسم والخبر جميعاً، ولما كانت هذه الحروف مشبَّهة بالمشبه ضعفت عنه في العمل فعملت في الاسم دون الخبر.

كذلك كلما كان العبد أبعد من التحقيق وأقرب من التلزيق والتلفيق كان أضعف في التأثير، وأخس في المقدار.

فصل [٣١]:

الفعل الماضي[2] مبني على الفتح نحو: ضَرَبَ، والفتح أخف الحركات، فلما كان الماضي بمضيه له أضعف الحالات خُصّ بأضعف الحركات.

والإشارة: أضعفهم استحقاقاً أبخسهم نصيباً.

قال الشيوخ: «إنَّ لله عباداً لم يرهم أهلاً لمعرفته فشغلهم بنوع من عبادته».

فصل [٣٢]:

الفعل المضارع[3] مرفوع لمضارعته الاسم، فأصل استحقاق الإعراب للاسم.

---

(١) انظر حديث الدكتور عاصم بهجة البيطار عن هذا الفصل في كتابه (النحو والصرف ص ٨٨ ـ ١٠٠).
(٢) انظر كتاب النحو والصرف ص ٢٢٤.
(٣) المضارع: وهو ما دل على حدث مقترن بالزمن الحاضر أو المستقبل نحو: «يكتب المجاهدون تاريخ =

والإشارة: مَنْ تشبه بقوم فهو منهم، ومن أحب قوماً حشر معهم.

وقال الشيوخ: هم القوم لا يشقى بهم جليس(١).

وقالوا: من تحقق بحاله لم يُخَلْ عنه حاضروه.

فصل [٣٣]:

الحروف التي تجزم الفعل المستقبل معلومة وهي(٢):

لم ولما وأخواتهما. والتي تنصبه معلومة(٣) وهي:

أن ولن وكي وإذن.

الإشارة منه: أنَّ الفعل المضارع ما دام منفرداً كان له أقوى الحركات، فإذا عملت فيه العوامل تغير عن استحقاق أقوى الحركات، وآل إلى حال الضعف.

وكذلك العبد عند تجرده فهو بنعت استقلاله وقوته، فإذا عملت فيه الواردات من الرغبة والرهبة وغيرهما رد إلى الضعف، فبعدما كان بالله مستقلاً صار أسير حظ وصريع نصيب، ثم... بعض العوامل فيه تنصبه فتعرضه لكل قاصد، وبعض العوامل فيه تجزمه فتقطع عنه الفوائد.

= أمتهم» وهو قسمان: آ ـ معرب ويكون مرفوعاً بالضمة الظاهرة أو المقدرة إن كان معتل الآخر نحو «يعلم، يسعى، يقضي، يدعو» أو بحذف النون إن كان من الأفعال الخمسة نحو: «تعلمان، يعلمان، تعلمون، يعلمون، تعلمين» فإن سبق المضارع بناصب نُصب، أو جازم جُزم. ب ـ مبني، وبناؤه على السكون إن اتصلت به نون النسوة نحو: يكتبْن، يَرضَيْنَ وعلى الفتح إن باشرته نون التوكيد نحو: لأحفظنَّ العهد (النحو والصرف ص ٢٢٤ د. عاصم البيطار).

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/ ٣٨٣)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢/ ٣٨٣، ٥/ ١٠)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٧/ ٣٩٢) والبيهقي في (الأسماء والصفات ٢٠٧)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ٥٤)، والسيوطي في (الحاوي للفتاوي ٢/ ١٢٤، وعلي الغفار في (مختصر العلو تحقيق: الألباني ٩١).

(٢) يجزم الفعل المضارع بنوعين من الجوازم آ ـ ما يجزم فعلاً واحداً وهو أربعة أحرف: لم، لما، لام الأمر لا الناهية. ب: ما يجزم فعلين اثنين الأول فعل الشرط والثاني جوابه وجزاؤه وهو: «إن، إذما، مَنْ، ما، مهما، متىٰ، أيان، أين، أنى، حيثما، كيفما، أي». ويجزم المضارع بالسكون الظاهر، أو بحذف حرف العلة إن كان معتل الآخر، وبحذف النون، إن كان من الأفعال الخمسة، ويكون في محل جزم إن أتى ماضياً أو مضارعاً مبنياً. (النحو والصرف ص ٢٣٧ د. عاصم البيطار).

(٣) انظر حديث الدكتور عاصم البيطار عن نصب الفعل المضارع بكتابه النحو والصرف ص ٢٢٨.

فصل [٣٤]:

الأمر[١] مبني على السكون، نحو قولهم: اذهبْ. والنهي مجزوم نحو: لا تفعل.

والإشارة: السكون يشير إلى الدوام، كما أن الحركة تعني الزوال، فالأمر على الوجوب واللزوم، والنهي مجزوم إذ النهي عن الشيء يقطع عنك مرادك لتكون كما أمرت به، وتقف عما نهيت عنه.

وجواب الأمر وجواب النهي مجزومان، إذ ليس للمأمور ولا للمنهي لسان الاعتراض، وما شأنهما إلا الاستسلام والتزام مقتضى الأمر أو النهي، فنعت المعارضة من المأمور والمنهي مجزوم، وغير الانقياد والخضوع منهما معدوم.

فصل [٣٥]:

النعت[٢] تابع للاسم، فإن كان الاسم مرفوعاً فالنعت مرفوع، وإنْ كان منصوباً أو مخفوضاً فالنعت مثله.

والإشارة من الاسم إلى السر، ومن النعت إلى الوصف، وإن ما يلوح على الظاهر ما يلقى به عن السر، سألوا: مَنْ العارف؟ فقال: «لون الماء من لون إنائه»[٣].

وأنشدوا:

كيفما دارت الزجاجة دُرنا ... يحسب الجاهلون أنا جُنِنا

ولما كان النعت تابعاً كان حكمه حكم متبوعه، وهكذا حكم كل تابع إنما هو حكم متبوعه.

فصل [٣٦]:

الشرط والجزاء مجزومان، وللشرط والجزاء حروف نحو: إنْ ومَن... وما أشبههما نحو قولك: إنْ تَضْربْ أضْربْ.

---

(١) الأمر: هو ما دل على طلب حصول الحدث في المستقبل (أي بعد زمن المتكلم) نحو: افعل خيراً والأمر في الأصل تابع للمضارع، يُشتق منه، ويُبنى على ما يجزم به. (النحو والصرف ص ٢٢٥).

(٢) النعت: في اصطلاح النحاة ـ تابع يكمل متبوعه بدلالته على معنى فيه أو فيما يتعلق به. (النحو والصرف ص ٢٧٢).

(٣) انظر الرسالة القشيرية ص ٣١٦.

والإشارة: الجزاء لا يُستحق إلا بحصول الشرط سواء بسواء كذلك في الشرع علق أشياء من أفضاله على أشياء من أفعالك، فإن وفَيت بالشرط استوجبت الجزاء، لذا قالوا:

إن وجـدنـا لمـا ادعيـت شهـوداً   لـم تجـد عنـدنـا لحـق جحـوداً

وقال الله عز وجل: ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ [البقرة: ٤٠].

فصل [٣٧]:

حروف العطف(١) عشرة: الفاء والواو وثم وأخواتها. وحكم المعطوف في الإعراب حكم المعطوف عليه.

والإشارة: لما اشتركا في المعنى تشاكلا في صورة الإعراب. كذلك: من صحب قوماً، ووافقهم، وانخرط في سلكهم، وعُدَّ من زمرتهم فما استقبلهم استقبله، وما يفتح لهم به يُفرد له منه نصيب.

وفي الأثر: «جلساؤكم شركاؤكم»(٢).

فصل [٣٨]:

همزة الوصل تلحق بالأسماء والأفعال في أحوال مخصوصة، ولكنها إنما تلحق ما تلحق بنية الحذف عند الاستغناء عنها.

والإشارة منه: أنَّ العبدُ يُنصب لمقام ـ والمقصود غيره، فإذا زال ذلك المعنى، وحصل ذلك المقصود رد هذا المنصوب إلى ما يستحقه، وهذه محنة للأكباد مُفَتِّتة، وفي معناه استشهدوا بهذا البيت:

عجبت لسعي الـدهـر بيني وبينهـا   فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

وقال غيره:

---

(١) انظر النحو والصرف ص ٢٩٤ ـ ٣٠٤.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في (التمهيد ٦/١٥٦)، والقرطبي في (التفسير ١٣/١٩٩)، والعجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٣٩٤).

سكنوا في ديارهم ثم قالوا ما لك ـ اليوم ـ عندنا من جواب
اطعمونا حتى إذا ما طعمنا وجرت بيننا عرى الأسباب

وقد يمتحنون بالتغافل عنهم، فبعد طول الغيبة ينشدون:

أُدرجْت في أثواب نسيانكم حتى كأنني ألف الوصل

ولما لم تكن ألف الوصل أصلية لم تبق على دوام الأوقات، كذلك من لم تسبق قسمته بالجميل فإلى محتوم الأزل ينول أمره.

فصل [٣٩]:

الحروف[١] التي تخفض الأسماء محصورة نحو: من وإلى وفي والباء الزائدة والكاف الزائدة... وأخواتها، وهذه الحروف تدخل على الأسماء وعملها الخفض.

كذلك: من الأسباب الداخلة على العبد ما يعمل فيه الكسر والخضوع والوضع، فمَن داخله الطمع والحرص والتمني والشهوة وأمثالها من الخصال المذمومة والأخلاق الدنيئة أوجبَتْ له ضعة الحال ونقصان الرتبة وخساسة المنزلة.

فصل [٤٠]:

ومن الحروف ما يدخل على الاسم المبتدأ ولا يغير معناه، ولا يوجب له تغير الإعراب وهي مثل: إنما، وكأنما وليتما، ولعلما وغيرها.

والإشارة: أن من الناس من لا تؤثر فيه الواردات بحال، فهو في حال ما دخل عليه مثله في حال تجرده عنها.

دخل أحدهم على بعض المشايخ وبالقرب منه ملاهٍ فتوهم هذا الداخل أنه متغير بما يجري ولكنه رآه لا يؤثر فيه شيء من ذلك، ولا يشغله ما يجري عما كان به من الوقت[٢] فقال: «فَديتُ من لا تؤثر فيه الجبال والرواسي[٣]»!

---

(١) انظر النحو والصرف ص ٢٠٧ ـ ٢١٦.
(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٥٥ ـ ٥٦ (الوقت).
(٣) الرَّواسي: الجبال الشوامخ.

فقال ذلك الشيخ: «يا فلان، إنا قد جردنا عن رق الأشياء في الأزل».

فصل [٤١]:

جواب الأمر والنهي والدعاء والاستفهام والجحد والعرض والتمني ـ بالفاء منصوب، ويجزم عند حذف الفاء.

الإشارة: لما حصلت الفاء واسطة بين الجواب وهذه الأشياء أخرج الجواب عن واجب استحقاقه إلى صفة أخرى. فكذلك شرط الواسطة: تَغَيُّر حكم المدخول عليه. فمن عاش مع الله تعالى بواسطة المعلوم تغير عليه حكم ما وجب له عند التجرد عن المعلوم.

أما العيش مع الله بلا علاقة فيُبقي العبد على ما يحب ـ من تحقيق الوصل ـ في الأصل.

فصل [٤٢]:

المنادى[١] على أقسام: فللمفرد المعرفة وصف، وللمضاف وصف، وللنكرة وصف.

كذلك من كان من العباد مفرداً ينادى على وصف غير وصف ما يُنادَى وهو مضاف.

وكذلك من كان بوصف النكرة. والمفرد المعرفة من الأسماء مبني على الضمة ـ والضمة أقوى الحركات. . وكذلك من كان أبداً بنعت التفريد كان في أعلى الحالات وأقوى الصفات.

والمنادى المضاف منصوب، وكذلك من أضيفت إليه العلائق فهو في أضعف الحالات ـ كما أن النصب أضعف الحركات.

والنكرة من الأسماء خُصّ بعلم آخر، كذلك صاحب النكرة وُسِمَ برقم آخر.

---

(١) النداء: هو الدعاء بأحرف مخصوصة تسمى «أدوات النداء» و«المنادىٰ» هو اسم يقع بعد أداة من أدوات النداء طلباً لإقباله. وأحرف النداء هي: الهمزة، أي، يا، أيا، هيا، وا. (النحو والصرف ص ١٩٥) .

فصل [٤٣]:

ويقع في النداء الترخيم[1]، وهو حذف بعض الاسم من آخره على جهة الإيجاز، ولذلك في مسائل النحو شرح.

الإشارة: إلى أنه قد يكون في نحو القلب ترخيم المنادى، وهو أن ينادَى بالإشارة، فيُحذف بعض التفسير ويقتصر على ما هو المعلوم بين الأحباب.. قال عز وجل لنبيه:

(يَس)، جاء في بعض التفاسير أن معناه: يا سيد، وذلك على سنتهم في الحذف والاختصار كما قال قائلهم:

قلت لها: قفي فقالت: قاف:

والاقتصار ـ على شطر الكلام ـ في مذهب الأحباب أبلغ من الإتمام.. ولهذا قال بعضهم:

ليس من الظَّرف امتحان الحبيب بالوصف.

فصل [٤٤]:

من الأفعال ما ليس يتصرف تصرفاً تاماً مثل:

نِعْم وبِئس وعسى ولذلك أبواب في النحو وأحكام.

والإشارة منه: أن من الأفعال ما ليس بتام، فلا يتمكن العبد من التصرف فيه على حسب ما أراده، وبعضها به وإليه، فمن ذلك فَتحُ الجفن، والإصغاء، إذ الإدراك ـ وهو البصر. والسمع ـ ليس بمكتسب للعبد، فإذا أتى بالإصغاء وفتح الجفن خلق الله الإدراك على مجرى العادة... فذلك فعل ناقص التصرف فيه، فيَرِدُ به الأمر والنهي، ويحصل عليه الثواب والعقاب.

---

(١) الترخيم عند النحاة هو حذف آخر المنادىٰ للتحفيف غالباً، والمنادىٰ المرخم نوعان: آ ـ ما خُتم بتاء التأنيث سواء أكان مفرداً علماً نحو: يا فاطمة ويا هبة، أو نكرة مقصودة نحو: يا جارية، ويا أدبية. ب ـ المفرد العلم بشرط أن يكون أكثر من ثلاثة أحرف نحو: يا حارِ: حارث، يا مالِ: مالك. (النحو والصرف ص ٢٠١).

فصل [٤٥]:

ومن الألفاظ ما تكون صيغته واحدة ولها معان كثيرة كقولهم: «ما» فيكون صلة ويكون للنفي ويكون بمعنى الذي، وبمعنى مَنْ. . وغيره.

ويكون مشبَّهاً بالمشبه بالفعل فيقولون: ما زيد قائماً. إذ يشبهونه بليس. وقوم يرفعون خبره، وقوم ينصبونه.

ويتبين الفرق بين «ما» «وليس» في تقديم الخبر وذلك لنقصان «ما» عن «ليس». . كذلك الملتحق بالملتحق لا يبلغ شأو[1] المتحقق.

أمـا الخيـام فـإنهـا كخيـامهـم   وأرى نسـاء الحـي غيـر نسـائهـا

وفي قريب منه قالوا:

فـذرْ عينيـك وشـأنيهمـا   أصبحـت مشغـولاً بمشغـول

والمشغول بالمشغول أشدهم محنة، كذلك المتشبِّه بالمتشبَّه أضعفهم حالة.

فصل [٤٦][2]:

الاسم المنفي بلا مبني على الفتح، لأن «لا» نقيض «إن»، فلما كانت «إن» ـ التي للتحقيق ـ تنصب الاسم فالمنفي بـ «لا» يبنى على الفتح. . . وهذا باب في النحو يجري على المعنى حكم نقيضه.

والإشارة أنه يوجد في الأحوال ذلك: فإن غاية الحزن توجب الضحك، ونهاية السرور توجب البكاء، وغاية الهجر تكون بترك العتاب، وحقيقة الود تكون بالتجني وكثرة العتاب. . وأنشدوا:

تـرْكُ العتـاب ـ إذا استحـق أخ   منـك العتـاب ـ ذريعـةُ الهجـر

وأنشدوا:

---

(١) الشَّأْوُ: الشوط والسبق والغاية والأمد.

(٢) انظر كتاب النحو والصرف للدكتور عاصم البيطار ص ١٠١ ـ ١٠٦.

ولمـــا غـــدت عيسهـــم للنـــوى وظلـــت بـــأحـــداجهـــا تَـــرْتِـــكُ[1]
ضحكـــت مـــن البيـــن مستعجبـــاً وشـــر الشـــدائـــد مـــا يُضحـــكُ

وقيل: إنَّ يعقوب عليه السلام لما رأى يوسف عليه السلام بكى، فقيل له في ذلك، فقال: ذاك بكاء الحزن وهذا بكاء السرور.

فصل [٤٧]:

ومن الألفاظ التي تقع على معان مختلفة: «كم»، فإنه يكون بمعنى الاستفهام فينصب. ويكون بمعنى «رب» فيخفض. والفرق بين «كم» و«رب» اختصاص «كم» بالتكثير «ورب» بالتقليل، ويتميز أحدهما عن الآخر بالقرينة والعلامة.

والإشارة: كذلك من الناس من هو في صورة غيره، ولكن بالقرينة والأمارة تتميز المقادير، فالزاهد في صورة الواجد، لكنَّ هذا قصده ـ من الحق ـ عطاؤه، وهذا موجب استقلاله بقاؤه.

وقد يجمع الطريق سالكين ولكن بالمقصد تتفاوت المقادير، فواحد يرجع إلى قَصْر مملوك له، وآخر إلى حجرة بِكِراء.

فصل [٤٨]:

حروف القسم تجر المقسم به بإضمار فعل، فقول القائل: بالله أي يميني بالله أو حلفت بالله.

وبعض هذه الحروف أكثر تعرفاً وأعم دخولاً كالباء، وبعضها أقل كالتاء والواو، وواسطة بين القليل والكثير. . . والكل حروف للقسم.

والإشارة: الجميع من جملة الخدم، ولكن منهم مَنْ يدخل الدار ويتمكن في الصدر، ومنهم من حَدُّه أن يحضر الباب ويقف من البعد، قال تعالى: ﴿**قد علم كل أناس مشربهم**﴾ [البقرة: ٦٠ والأعراف: ١٦٠].

---

(١) العِيُس: كرام الإبل، أو الإبل البيض التي يُخالط بياضها شقرة أو ظلمة خفيَّة. النوى: الوجه الذي ينويه المسافر من قرب أو بُعد. الحِدْجُ: مركب للنساء كالهودج والمحفة.

فصل [٤٩]:

الظرف على ضربين: ظرف زمان[1] وظرف مكان[2]، وكلاهما منصوب، لأنهما مفعول فيهما.

وفي نحو القلب: الظرف أيضاً على ضربين: ظرف الزمان وظرف المكان، فالزمان هو الوقت، والوقت ما أنت فيه، ولكن ظرف الزمان في نحو القلب مختلف باختلاف ما فيه، فإن كان الذي في الوقت وفاق الأمر فظرف صاحبه على الضمة، لأن الضمة أقوى الحركات. وإن كان الذي في الوقت خلاف الأمر فظرف صاحبه مكسور ـ لأن الكسر أرق الحركات. وإن كان الذي في الوقت المباحاتُ فظرف صاحبه مفتوح ـ لأن الفتحة أخف الحركات، والمباح أخف الحالات.

وأما ظرف المكان: فإن كان الحق ـ سبحانه ـ بنعت الرضا عن صاحبه فظرفه مرفوع أو منصوب، وإن كان صاحبه برقم الحظ فظرفه مكسور. فإن لون الماء لَوْنُ إنائه.

هذا هو الفرق بين ظرف نحو الخطاب وظرف نحو القلب.

فصل [٥٠]:

من أبواب النحو الاستثناء[3]، وهو إخراج بعض ما تناوله اللفظ ـ بدليل متصل ـ منه.

نحو: جاءَ القوم إلا زيداً، وغير ذلك.

فلو لم يُعقَّب لفظ الاستثناء لكان اللفظ المتقدم يقتضي للمستثنى دخوله في جملة الأشياء المخبر عنها.

والإشارة: أنه قد يجمع الوقتُ والطريقة قوماً لو لم يتعقب ما يميِّز البعض لاشترك الجميع في الحال، ولكن جاء الحكم فأخرج البعض من الكل:

---

(١) ظرف زمان: وهو ما دل على زمان الحدث نحو: ساعة، حين. (النحو والصرف ص ١٤٩).
(٢) ظرف مكان: وهو ما دل على مكان الحدث نحو: قبل، عند. (النحو والصرف ص ١٤٩).
(٣) الاستثناء: هو إخراج ما بعد أداة الاستثناء من حكم ما قبلها نحو: زارني الرفاق إلا زيداً. (النحو والصرف ص ١٨٥).

إنَّ الأحبـــــة شمَّـــــروا وبقينـــــا

كذلك قال الشيوخ: إنَّ في كل عصر ووقت يدخل في هذه الطريقة من لا نهاية لهم، ثم يخرج الأكثرون عند حصول الابتلاء والامتحان، ويبقى القليل منهم، ولقد قال الشيوخ: هم الأكثرون ـ وإن قلوا، ومواضع الأُنس حيث حلُّوا.

وينقسم الاستثناء إلى قسمين: استثناء الشيء من غير جنسه، ويقال له الاستثناء المنقطع.

واستثناء من جنسه.

وفي الإشارة: من كان ضدَّاً غير مجانس فلا بأس بسقوطه، ولا مبالاة بخروجه.

ومن كان مُحرِماً[١] للقوم.. فإن نُفِي عنهم، وأخرج من بين جملتهم فالحسرة أشد، والحياة أصعب.

فصل [٥١]:

من الحروف ما يلحق بغيره، والمقصود منه تمييز ذلك الغير مما سواه. كالواو الملحقة بعمرو في الخط لتكون فرقاً بين عَمرو وعُمَر.. وهذا الإلحاق لا يدوم عند الاستغناء عنه ـ وهو مثل همزة الوصل فيما ذكرنا من قبل.

والإشارة: أن من الناس مَنْ يلحق بالطريق لأجل الغير، ثم يطْرَح.

وقد قال الشيوخ: إنَّ الله قيض لهؤلاء القوم أحد رجلين: إما مؤمناً موافقاً وإما منافقاً مسخَّراً.

وأنشدوا:

أيهـا المـدعـي سليمـى هـواهـا ... لسـت منهـا ولا قـلامـة ظفـر[٢]
إنمـا أنـت فـي هـواهـا كـواو ... أُلحقـت فـي الهجـاء ظلمـاً بعمـرو

(١) يقول القشيري في هذا الصدد في رسالته ص ٣٨٥: «ومن شرط المريد إذا زار شيخاً أن يدخل عليه بالحرمة، وينظر إليه بالحشمة، فإن أهلّه الشيخ لشيء من الخدمة عدّ ذلك من جزيل النعمة.
(٢) قُلامة الظُّفر: مَثَلٌ في القلة والحقارة.

فصل [٥٢]:

الأسماء على ضربين: منها ما ينصرف ـ وهو الاسم المتمكن، ومنها ما لا ينصرف[١] وهو الناقص التمكن، فالذي ينصرف يجري بوجوه الإعراب، وما لا ينصرف ناقص النصيب من الإعراب.

الإشارة: كذلك الخَلْق، منهم مَنْ هو مجدود في القسمة، يحظى بكل النعم، من إقبال ووصال، وتحقيق آمال، وزكاء أفعال، وصفاء أحوال، بالنهار له توفيق، وبالليل لوصله تحقيق، يجرون على البساط كما يريدون:

﴿**ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة**﴾ [يونس: ٢٦].

ومنهم من هو منحوس الحظ، إن قبل بالنهار أذيق بالليل طعم الرد، وإن وافى بالليل لحكم الاتفاق تجرَّع بالغد كأس الصد.

فصل [٥٣]:

إذ صغَّرت[٢] اسماً ثلاثياً زدت ياء فيه وضممت أوله، فتقول في تصغير حجر حجير. كذلك إذا أراد الحق تحقير عبد في الرتبة زاد له شغلاً فيتوهمه ذلك البائس نعمةً وفضلاً ورفعةً على أشكاله، وهو في الحقيقة إذلال له، ونقصان لحاله. . . وعلى هذا النحو تقاس أقسام التصغير.

فصل [٥٤]:

يقال في التعجب[٣]: ما أحسنَ زيداً!

وأحسن بزيد!

---

(١) الاسم الممنوع من الصرف: هو الذي لا ينوّن، ويُجرّ بالفتحة نيابة عن الكسرة لعلة أصلية أو علتين فرعيتين فيه، ويسمى أيضاً الممنوع من التنوين. (النحو والصرف ص ٢٩).

(٢) التصغير: هو تغيير يطرأ على بنية الاسم المعرب لتحقيق معنى جديد بأوجز طريقة لفظية وهذا التعريف يدل على أن التصغير خاص بالاسم دون الفعل والحرف، وأنه يطرأ على الاسم المعرب دون غيره، وما صُغّر من المبنيات سماعي يحفظ ولا يقاس عليه. (النحو والصرف ص ٣٨٩).

(٣) في العربية صيغ متعددة للتعجب تدل القرائن على معناها، على أن هنالك صيغتين وضعتا للتعجب وأفادتا معناه بالصيغة نفسها دون قرينة خارجية هما: ما أفعله، وأفعل به. نحو: ما أكرم الجهاد وأكرمْ بالمجاهدين (النحو والصرف ص ٢٤٩).

وزيد ما أحسنه!

فتنصب الاسم إذا تعجبت من صفته فتقول:

ما أحسن زيداً! أي: أي شيء حسّن زيداً.

والإشارة: النصب أضعف الحركات، فإذا دخل التعجب على الاسم خص بالفتح الذي هو أضعف الحركات، كذلك إذا دخل الإعجاب على المرء آل إلى أضعف الحالات، فإن الإعجاب أشدُّ الآفات.

فصل [٥٥]:

الحال[١] منصوب.. تقول: جاءَ زيدٌ فرحاً، ففرحاً نصب على الحال، واستحق النصب لأنه مفعول. والحال تأتي بعد تمام الكلام، فلما أتى بعد تمام الكلام صار كالمستغنى عنه، فنُصِب.

والإشارة: المستغنى عنه له أضعف الحركات، وأقل نصيب من الاستحقاق، ولهذا قيل: علامة المخلوق أوصاف النقص، لأن المخلوق مستغنًى عنه، قال تعالى: ﴿**والله الغني وأنتم الفقراء**﴾ [محمد: ٣٨].

وأنشدوا:

وبعيـن مفتقـرٍ إليـك نظـرتنـي   فحقرتني ورميت بي من حـالـقِ

والحال لا يكون إلا نكرة. (ولذلك) فإن صاحب الحال من القوم يجب ألا ينظر لحاله، لأنه إذا عرف حاله لاحظها، وإذا لاحظها أعجب بها، وإذا أعجب بها تلاشت. وكان الأستاذ أبو عليّ الدّقاق[٢] يقول: «أخص الأحوال ما استترت عن صاحبها».

فصل [٥٦]:

التمييز[٣] يوجب النصب، تقول: عِشرون درهماً... تشبيهاً بالمفعول حيث أتى بعد تمام الكلام.

---

(١) الحال: هو وصف فضلة مسوق لبيان هيئة صاحبه أو تأكيده أو تأكيد عامله أو مضمون الجملة قبله. (النحو والصرف ص ١٥٨، وشرح شذور الذهب لابن هشام).

(٢) هو أبو علي الحسن بن علي النيسابوري المعروف بالدقاق أستاذ القشيري. (الرسالة القشيرية ص ٩).

(٣) التمييز: اسم نكرة يذكر تفسيراً لمبهم قبله يصلح لأشياء كثيرة لولا ذكره نحو: اشتريت خمسة كتب وأحد عشر قلماً (النحو والصرف ص ١٧٦).

والإشارة: أن المفعول ـ لنقصانه عن الفاعل ـ خُصَّ بالنصب لضعف المفعول وضعف الفتحة.

فصل [٥٧]:

الهاء تلحق بعدد المذكر فيما دون العشرة، وتحذف من عدد المؤنث.. تقول: ثلاثة رجال، وخمس نسوة، وتضيف العدد ها هنا إلى المعدود.

واعتبر هذا نوعاً من المعادلة، فلما كان المؤنث أثقل من المذكر حذفت العلامة من لفظ عدده، ولما كان المذكر أخف من المؤنث زيدت الهاء في لفظ عدده فقالوا: ثلاثة رجال ـ والإنصاف في كل شيء عزيز، فإن كان في أحد ضعف يجب أن يقوّى بغيره، وإن كان في شيء قوة حمِّل ما يحتمله، ولهذا أمر في الشريعة بمواساة الفقراء، وكذلك تحميل العاقلة في الدية.

وقد يفسر العدد بالمعدود نحو قولهم: أحد عشر رجلاً، والتفسير يأتي بعد تمام الكلام فأشبه ما ذكرنا (من المفعول)[1].

فصل [٥٨]:

من الأسماء ما هو اسم موصول لا تتم الفائدة إلا بصلته نحو: ما ومَن والذي وأي.

والإشارة: كذلك من الناس من لا يستقل بتدبيره، ولا يكون له بدٌّ من غيره، ثم إن أراد الله به خيراً سَدّ عليه طريق المخلوقين، وفتح عليه طريق شهود الحق ـ سبحانه.

وإن أراد به سوءاً فالحال بالضّد.

فصل [٥٩]:

إذا نسبت[2] اسماً إلى اسم زدت في آخره ياء مشددة وأُقِرّ الأول بحاله، تقول في النسب إلى جعفر جعفري، وإلى عُمر عمري... وكذلك حروفه وأقسامه.

---

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) النَّسب: إلحاق ياء مشددة في آخر الاسم وكسر ما قبلها للدلالة على النسبة إلى المجرد منها (النحو والصرف ص ٤٠٠ د. عاصم البيطار).

والمنسوب يختص بالمنسوب إليه، وقيمة كل منسوب ما ينسب إليه، وإنما ينسب الشيء إلى الشيء إذا كان بينهما اختصاص.

والإشارة: يجب أن يطالع كل إلى ماذا يُنسب؟ إن كان رجل ينسب إلى الدنيا يقال له دنياوي فقيمته الدنيا.

وإن كان الغالب عليه حديث الآخرة نسب إلى الآخرة، فقيمته الآخرة.

كذلك جميع ما هو الغالب عليه، فلينظرْ كل غالبه يعرف قدره.

فصل [٦٠]:

الجموع مختلفة، فمن جمع هو أقل الجمع، ومن جمع هو جمع الكثير، وأقسام الجمع تكثر. كذلك أحكامه.

والجمع إنما يكون لأشكال تزدوج، وأمثال تجتمع، ثم يُخبر عن المجتمعات باسم واحد.

والإشارة: الإنسان اسم شامل لجملة مخصوصة لها بِنْية مشهورة: فمن كانت صفاته وخصاله وضيعة فجمعه جمع القليل، ومن كانت خصاله شريفة فجمعه جمع الكثير، وباختلاف أحكامه، اختلاف مقداره ومقامه.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، فهذه فصول في نحو القلوب أنشأناها على وجه الإيجاز، وبالله توفيق الخلق أجمعين، وعليه التكلان، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

القسم الثاني

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمـد لله الـذي أودع الحكمـة أهلهـا، وعلّـم آدم الأسمـاء كلّهـا، وأوقفـه علـى المقصود، من دائرة الوجود، فحلَّ شكلها، فبيّن لبنيه حروفها، ووسم اسمها، ورسم فعلها، فمنهم من شمّر لوابل[1] القسمة وما رضي بطلّها[2]، ومنهم من رضي بالعزيمة فلما عَقَدَ عقْد العزيمة حلَّها، فزمرة أقبلت على إصلاح الشَّأن ليظْهر فضلها، وزمرة تجاوزت إلى جنَّات الجنان، ذوات أغصان العصيان، من شجرة الطغيان، فقطعت أصلها[3]، ثم نحت نحو من أعلَّها[4]، لعلَّها، تظفر بشفائها ولعلَّها، ويخاطبُها شفاهاً ومن لها.

أحمده على نعمه كلها، وجوده عليَّ[5] دلَّها، فأهدت إليَّ وَبْلَهَا، وأشهد أنَّ لا إلٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له شهادةً أستظل ظلَّها، يوم لا ظلَّ إلى ظلُّها، وأشهد أنَّ سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أرسله إلى جنود الطُّغيان ففلَّها[6]، وإلى ليوث الأوثان فأذلَّها، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً دائمة إلى يوم تضعُ كل ذات حملٍ حملها، وبعد:

---

(١) الوَبْل والوابل: المطر الشديد، الضخم القطر.

(٢) الطَّلُّ: المطر الخفيف الضعيف الصغير القطر.

(٣) الأصل: أساس الشيء الذي يقوم عليه وقاعدته ومنشؤه الذي ينبت منه وما يقابل الفرع (أصل الشجرة).

(٤) علَّ فلاناً: سقاه ثانية، أو تباعاً.

(٥) في الأصل: إلى جوده أو إلى وجوده على ذلها وهذا تصحيف وأثبت الصحيح بدليل أنه قيل لذي النون المصري: بماذا عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي بربي، ولولا ربي لما عرفت ربي. (الرسالة القشيرية ص ٣١٥).

(٦) فلّ الجيش: هزمه.

فإن النحو عبارة عن القصد، والناس مختلفون في المقاصد، ومفترقون في المصادر والموارد فواحد تقويم لسانه مبلغ علمه، وواحد تقويم جنانه أكثر همِّه، فالأول صاحب عبارة، والثاني صاحب إشارة، فنقول وبالله التوفيق ولرسوله التصديق.

باب أقسام الكلام

قال أهل العبارة: أقسام الكلام ثلاثة: اسم وفعل وحرف، وقال أهل الإشارة: الأصول ثلاثة: أقوال وأفعال، وأحوال، فالأقوال: هي العلوم وهي مقدَّمة على العمل لقوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»[(١)] ثم تجب المبادرة إلى صالح الأعمال ثم تأتي الأحوال مواهب من الله تعالى.

باب الأسماء واشتقاقها[(٢)]

قال أهل العبارة: الاسم مشتق من السموّ أو من السّمة على الخلاف. وقال أهل الإشارة: اسم العبد: ما وسمه الله تعالى به في سابق مشيئته من شقاوةٍ وسعادة، فمن قرّبه في سابق مشيئته، فقد سما قدره بين بريَّته.

ولما دخل العبادُ إلى مكتب التعليم طالع آدم لوح الوجود فقرأ ﴿وعلَّم آدم الأسماء كلَّها﴾ [البقرة: ٣١] وطالع محمد ﷺ وسلم لوح الشهود، فقيل له بلسان الحال: نحن نطلعك على كلّ موجود، ثم خوطب بقوله: ﴿اقرأ باسم ربّك الذي خلق﴾ [العلق: ١] فلما قرأ وأدِّب وهُذِّب، قيل يا محمدُ: قد عرفتنا بالأسماء والصفات فتعرّف، إلينا بالذات ﴿اقرأ وربُّك

---

(١) أخرجه البخاري (إيمان ١٧)، (زكاة ١)، (صلاة ٢٨) ، (استتابة ٣)، (اعتصام ٢، ٢٨). ومسلم (إيمان ٣٢)، وأبو داود (زكاة ١)، (جهاد ٩٥)، والترمذي (إيمان ١، ٢)، (تفسير سورة ٨٨)، والنسائي (زكاة ٣) (إيمان ١٥)، (جهاد ١)، (تحريم، ١) ابن ماجه (مقدمة ٩)، (فتن ١)، والدارمي (سير ١٠)، وأحمد بن حنبل ١/١١، ٧٨، ٢/٣١٤، ٣٤٥، ٣٧٧، ٤٢٣، ٤٣٩، ٤٧٥، ٤٨٢، ٥٠٢، ٥٢٧، ٥٢٨، ٣/١٩٩، ٢٢٤، ٣٠٠، ٣٣٢، ٣٣٩، ٣٩٤، ٤/٩، ٥/٢٤٦.

(٢) الاشتقاق: هو أخذ كلمة من كلمة أخرى مع تناسب بينهما في المعنى وتغيير في اللفظ (النحو والصرف ص ٣٥٧).

﴿الأكرم﴾ [العلق: ٣] ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ [الأنعام: ٩١]. فلما غاب عن الاسم وجد المسمّى. ولما أعرض عن الفعل(١) حل الحرف المعمَّى، أي: المعنى الذي لا يسمَّى.

فصل

الاسم: صحيح ومعتل(٢). قال أهل العبارة: الصحيح ما سلم من حروف العلة وهي: الألفُ والواو والياء، وقال أهل الإشارة: من سلم اسمه من ألف الإلباس، وواو الوسواس(٣) وياء الياس ـ فقد صحّ اسمه وحق له الإعرابُ وهو البيان(٤)، ثم الكشف والعيان، فعلم علم اليقين، ثم عين اليقين، ثم حق اليقين، والله أعلم.

باب موانع الصرف(٥)

موانع الصرف عند أهل العبارة: تسع وهي معروفة، وعند أهل الإشارة (الجمع) ـ أن يجتنب العالم جمع الدنيا واجتماع الناس عليه. (والصرف) صرف وجوههم إليه. (والوصف) أن يكون قصده أن يوصف بالخير ويعرف به. (والتأنيث) ضعف العزم،

---

(١) في هذا الصدد قال القشيري برسالته ص ٥٧: سمعت الشيخ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: لما دخل الواسطي نيسابور سأل أصحاب أبي عثمان: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها، فقال: أمركم بالمجوسية المحضة، هلاّ أمركم بالغيبة عنها برؤية منشئها ومجريها، وإنما أراد الواسطي بهذا صيانتهم عن محل الإعجاب لا تعريجاً في أوطان التقصير أو تجويزاً للإخلال بأدب من الآداب.

(٢) انظر كتاب (النحو والصرف ص ٣٢٤ ـ ٣٢٦) (الصحيح والمعتل).

(٣) الوسواس: جمع وساوس، وهو الاسم من وسوس ويعني الشيطان، أو مرض يحدث من غلبة السوداء ويختلط معه الذهن، أو حديث النفس مما يخطر بالقلب من شر أو مما لا خير فيه.

(٤) انظر الرسالة القشيرية ص ٨٥.

(٥) الصرف والتصريف في اللغة التغيير، والصرف بالمعنى العلمي الاصطلاحي هو: «علم بأصول تعرف بها أحوال بنية الكلمة التي ليست بإعراب ولا بناء» أي هو مجموعة من القواعد تعرف بها الكلمة من حيث وزنها، وحركاتها وسكناتها وحروفها الأصلية والزائدة، وما طرأ عليها من إعلال أو إبدال وما إلى ذلك. والصرف بالمعنى العملي: «تحويل الأصل الواحد إلى أمثلة مختلفة لمعان مقصودة لا تحصل إلا بها» كتحويل كلمة العلم إلى عالم، وعلامة، ومعلوم... الخ (النحو والصرف ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧).

والرضى بالرذائل. (والمعرفة) أن يعرف نعم الله تعالى عليه ثم يقصِّر عن الشّكر. (والعجمة) أن يهمل نعمة الله بكتمان علمه. (والعدل) عدوله عن الطريق القويم. (والتركيب) إن يشوب عمله بأفعال الجهل (والألف) ألف أنا، (والنون) نون العظمة. (ووزن الفعل) أن يزن أعماله معتقداً أن عنده ـ حاصلاً فيحصل العجب. فمتى اجتمعت علتان من هذه العلل لم ينصرف إلى القبول، وانحرف عن باب الوصول.

باب الإعراب والبناء

لما كان الإعراب بالحركات الثلاث: الرفع والنصب والجر، والجزم. كان مدار أهل الإشارة برفع هممهم إلى الله تعالى، ونصب أبدانهم في طاعة الله تعالى، وخفض نفوسهم تواضعاً لله تعالى، وجزم قلوبهم عمَّا دون الله تعالى، وسكونهم إلى الله تعالى. والمعرب، هو المتغير من أصحاب التَّلوين(١)، والمبني: ما كان مستقيماً في حاله لا يتغير وهم أصحاب التمكين.

فصل

الأَسماء: معارف ونكرات، وكذلك العباد منهم معروف، له نصيب مع القوم هو به معروف، ومقام في الصدق هو به موصوف، ومنهم منكّر لا نصيبَ له مع القوْم، ولا حظَّ له سوَى الأَكل والنَّوْم.

فصل

المبتدأ: مرفوع لتجرده عن العوامل اللفظية، والفقير المتجرد مرفوع القدر، وخبره مرفوع، لانقطاعه عن العلائق، وتعلُّقه بالحقائق، الواردة من الخالق.

---

(١) التلوين: صفة أرباب الأحوال، والتمكين صفة أهل الحقائق، فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين، لأنه يرتقي من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف، ويخرج من مرحل ويحصل في مربع، فإذا وصل تمكّن. (الرسالة القشيرية ص ٧٨). وصاحب التلوين دائماً في الزيادة، وصاحب التمكين قد وصل ثم اتصل، وأمارة أنه اتصل: أنه بالكلية عن كليته بطل. قال بنص المشايخ: انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بنفوسهم فإذا ظفروا بنفوسهم فقد وصلوا (الرسالة القشيرية ص ٧٨).

فصل

الأفعال ثلاثة: ماض وحال ومستقبل، وأحوال القوم مختلفة: فمنهم من فكرته في السابقة، ومنهم من فكرته في الخاتمة، ومنهم من اشتغل بإصلاح وقته الذي هو فيه[1] عن الفكرة في مستقبله وماضيه.

فصل

وفعل الحال: مرفوع ما لم يدخل عليه ناصب أو جازم، فالناصب رؤية العبد لفعله، والجازم فترته عن سلوكه، فإذا سلم العبد من الملاحظة والفتور، ارتفع قدره عند العزيز الغفور **﴿إليه يصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّب والعمل الصالح يرفعه﴾** [فاطر: ١٠].

فصل

الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، فلما رأى العارفُ ألاَّ فاعل إلا الله تعالى عظُم قدره، ورفع ذكره، وخضع لجلاله، وتواضع عند شهود كماله، ورأى نفسه مفعولاً فانتصب لعبادته **﴿إذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب﴾** [الشرح: ٧، ٨].

فصل

الحال: وصفُ هيئة الفاعل والمفعول، ومن شرطه أن يكون نكرةً منصوبة، فالعارف[2] متوجِّه إلى الله تعالى في إصلاح حاله، مجتهد في تنكير نفسه كي لا يعرف فأحواله مع الله مستقيمة منتصبة، وهي بستر التَّورية، والنكرة محتجبة **﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التَّعفُّف﴾** [البقرة: ٢٧٣].

---

(١) قال القشيري: يقولون: الصوفي ابن وقته. يريدون بذلك أنه مشتغل بما هو أولى به في الحال، قائم بما هو مطالب به في الحين. وقد يعنون بالوقت ما هو فيه من الزمان. فقد قال قوم: الوقت ما بين الزمانين يعني: الماضي والمستقبل. (الرسالة القشيرية ص ٥٥).

(٢) سُئل يحيى بن معاذ عن العارف، فقال: رجل كائن بائن، وقال مرة: كان فبان (الرسالة القشيرية ص ٣١٧).

فصل

التمييز: تفسير ما أبهم، وتبيين ما لم يكن يُفهم، فالقوم بالعلم ميَّزوا الحقَّ من الباطل، وتبيَّن لهم بالسلوك الحالي من العاطل، ولا يكون التمييز إلا بعد تمام الكلام، وكذلك تفقَّهوا ثم اعتزلوا، وأحكموا العلم ثم تميَّزوا، فلما تمتْ لهم رتبة التمييز، نصبهم الله تعالى لإصلاح عباده، وميزهم فاستخلصهم لوداده، قال الله تعالى: ﴿**ليميز الله الخبيث من الطَّيِّب**﴾ [الأنفال: ٣٧].

باب البدل(١)

البدل: على أربعة أقسام، بدل الكل من الكلِّ(٢)، وهو بدل العارفين، تركوا الكل فعوّضهم الكل ﴿**وجوه يومئذٍ ناضرة، إلى ربِّها ناظرة**﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] شعر:

قلــوب العــارفيــن لهــا عيــون ... تــرى مــا لا يــراهُ النــاظــرونــا
وأجنحـــة تطيــر بغيــر ريــش ... إلــى ملكــوت ربِّ العــالمينــا

وبدل البعض(٣): بدل العابدين، بدَّلوا بالمعاصي الطاعات، وبدّلوا باللذَّات المجاهدات ﴿**فأولئك يُبدِّل الله سيآتهم حسنات**﴾ [الفرقان: ٧٠]. وبدل الاشتمال(٤): لقوم اشتملت أعمالهم على خوفٍ(٥) ورجاءٍ(٦) فأعطوا ما يرجون، وأمنوا مما يخافون ﴿**ألا إنَّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ [يونس: ٦٢].

وبدل الغلط(٧): بدل المطرودين، باعوا نصيبهم من القُرب، بحظوظ عاجلة ﴿**بئس للظَّالمين بدلا**﴾ [الكهف: ٥٠].

---

(١) البدل: هو التابع المقصود بالحكم بلا واسطة، أي هو المقصود بالحكم وحده، وذكر المتبوع قبله تهيئة للذهن وتوجيه النظر إليه (النحو والصرف ص ٢٧٨).

(٢) وسمي أيضاً بدل المطابقة أو البدل المطابق وهو بدل الشيء، مما هو طبق معناه نحو: هذا أخي زيد، وقوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم﴾ (النحو والصرف ص ٢٨٧).

(٣) بدل بعض من كل وهو بدل الجزء من كله سواء أكان الجزء قليلاً أو كثيراً نحو: «قرأت الكتاب نصفه» (النحو والصرف ص ٢٨٧).

(٤) بدل الاشتمال، هو بدل شيء من شيء آخر يشتمل عليه كقولنا: أعجبني زيد خلقه.

(٥) انظر الرسالة القشيرية ص ١٢٤ ـ ١٣١ (الخوف).

(٦) انظر الرسالة القشيرية ص ١٣١ ـ ١٣٨ (الرجاء).

(٧) البدل المباين وهو تابع لا يقع في فصيح الكلام لأنه قائم على غلط أو وهم أو نسيان.

فصل

النّعت: تابع للمنعوت، والوصف تابع للموصوف، كذلك أعمال العبد لا تفارقه، وما حصَّل من خير أو شرٍّ فهو لاحقه.

فصل

حروف العطف تتبع الآخر الأول، وأهل الإشارة توسَّلوا إلى الله تعالى في العطف عليهم، واللطف بهم، ليُلحقهم بأهل قربه، ويجعلَهُم من حزبه.

فصل

التوكيد[1]: هو التحقيق، والقوم أكَّدوا إيمانهم بالتصديق، وعقدهم مع الله بالتوثيق، وشمّروا في ملازمة الطريق.

فصل

حروف الجر: تخفض الأسماء، فلما علم المحققون أن الأشياء بالله، ومن الله، وإلى الله، خفضوا أنفسهم تواضعاً لله، فتعزّزوا بالإضافة[2] إلى جانب الله تعالى، أولئك الذين اصطفاهم الله لقربه وجعلهم من حزبه، نسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم، وأن يُلحقَنَا بهم، إنه كريم لطيف حليم وهَّاب، محسن متفضِّل جواد رحيم توَّاب، وإليه المرجع والمآب.

تم كتاب «نحو القلوب» بحمد الله وعونه،
وصلى الله على سيدنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) التوكيد أو التأكيد أسلوب من أساليب العربية يرمي إلى تقرير المعنى بتكراره أو إلى أن متبوعه حقيقي لا مبالغة فيه ولا مجاز. (النحو والصرف ص ٢٨٢).

(٢) التوحيد: إسقاط الياءات ـ المقصود بالياءات هنا: حروف الجر التي تتصل بياء المتكلم، وكلها تشير للذاتية وترتبط بها ـ فلا تقل: لي وبي ومني وإليّ. (الرسالة القشيرية ص ٣٠٢).

فهرس المحتويات



رياضة النفس

ويليه

نحو القلوب



دار الكتب العلمية

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة

هاتف وفاكس: ٣٧٨٥٤٢ - ١٣٦٦١٣٥ ٩٦١ ١ +
ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧
http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com

طبع في مطابع دار الكتب العلمية


ISBN 2-7451-3556-2
9 782745 135568
90000